القراءة الراشدة

لتعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية

تأليف

أبي الحسن علي الحسني الندوي

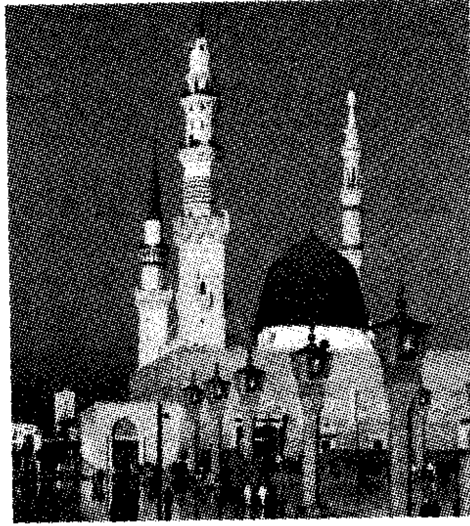
راجعه وشرح ألفاظه

سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثاني

(٣٢)

شَهَامَةُ الْيَتِيْمِ



تَـرَوْنَ أَمَامَكُمْ صُوْرَةَ مَسْجِدٍ ، هٰذَا مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، هَلْ تَعْرِفُوْنَ مِنْ خَبَرِ هٰذَا الْمَسْجِدِ شَيْئاً؟ إِنَّ لَهُ تَارِيْخاً يَغْتَبِطُ[1] بِهِ كُلُّ طِفْلٍ مُسْلِمٍ.

لَمَّا دَعَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ فِيْ مَكَّةَ ، وَنَادَىٰ فِي النَّاسِ «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ» غَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَكَانَتْ

(١) اغْتَبَطَ يَغْتَبِطُ: فَرِحَ بالنعمة.

تَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَكَانَتْ فِي الْكَعْبَةِ الَّتِيْ بَنَاهَا إِبْرَاهِيْمُ وَإِسْمَاعِيْلُ «عَلَيْهِمَا الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ» لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ: كَانَ فِيْ تِلْكَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثُمِئَةٍ وَسِتُّوْنَ صَنَماً ، فَاشْتَعَلَتْ قُرَيْشٌ غَضَباً وَآذَوْا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وَعَذَّبُوا الْمُسْلِمِيْنَ ، فَصَبَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ وَصَبَرَ الْمُسْلِمُوْنَ وَثَبَتُوْا لَهُمْ كَالْجِبَالِ.

وَلٰكِنَّ قُرَيْشاً كَانُوْا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الإِسْلاَمِ وَيَحُوْلُوْنَ[1] بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَعِبَادَةِ اللهِ ، فَأَذِنَ اللهُ لِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ وَهَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَكَانَتِ الْمَدِيْنَةُ أَرْضاً طَيِّبَةً للإِسْلاَمِ ، فِيْ أَهْلِهَا لِيْنٌ وَرِقَّةٌ ، قَدْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَثِيْرٌ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

وَلَمَّا انْتَقَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَسَكَنَ هُنَالِكَ أَحَبَّ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِداً ، لأَنَّ الْمَسْجِدَ لاَزِمٌ[2] لِلْمُسْلِمِيْنَ ، وَهُوَ قُطْبٌ يَدُوْرُ حَوْلَهُ رَحَى[3] الْحَيَاةِ الإِسْلاَمِيَّةِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَازِلاً فِيْ بَيْتِ أَبِيْ أَيُّوْبَ الأَنْصَارِيِّ (رَضِيَ

---

(١) حَالَ يَحُوْلُ : مَنَعَ.
(٢) لازم: ضروري.
(٣) رحىٰ جمع أرحاء: أداة يطحن بها ، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ، ويدار الأعلىٰ على قطب.

اللهُ عَنْهُ) وَكَانَ ضَيْفاً عَلَيْهِ ، وَكَانَ قَرِيْباً مِنْ بَيْتِهِ مِرْبَدٌ[1] ، فَأَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ فِيْ ذٰلِكَ الْمَكَانِ ، قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : لِمَنْ هذَا الْمِرْبَدُ؟

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ اسْمُهُ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ : هُوَ يَا رَسُوْلَ اللهِ! لِيَتِيْمَيْنِ ، اسْمُ أَحَدِهِمَا سَهْلٌ واسمُ الثَّانِيْ سُهَيْلٌ.

طَلَبَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَهْلاً وَسُهَيْلاً ، وَهُمَا وَلَدَانِ يَتِيْمَانِ ، فَلَمَّا حَضَرَا ، كَلَّمَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيْ أَمْرِ الْمِرْبدِ وَثَمَنِهِ.

قَالَ سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ : هُوَ يَا رَسُوْلَ الله! للهِ ، لاَ نَشْتَرِيْ بِهِ ثَمَناً ، فَابْنِ الْمَسْجِدَ ، وَقَدْ طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُنَا ، وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبَىٰ وَاشْتَرَىٰ مِنْهُمَا الْمَكَانَ ، وَدَفَعَ الثَّمَنَ.

وَبَنَىٰ الْمُسْلِمُوْنَ الْمَسْجِدَ ، وَرَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ بِيَدِهِ وَيَنْقُلُ اللَّبِنَ ، فقَالَ قائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ :

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ   لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلِّلُ

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَبْنُوْنَهُ وَيَقُوْلُوْنَ :

اللهُمَّ لاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْش الآخِرَة   فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَة

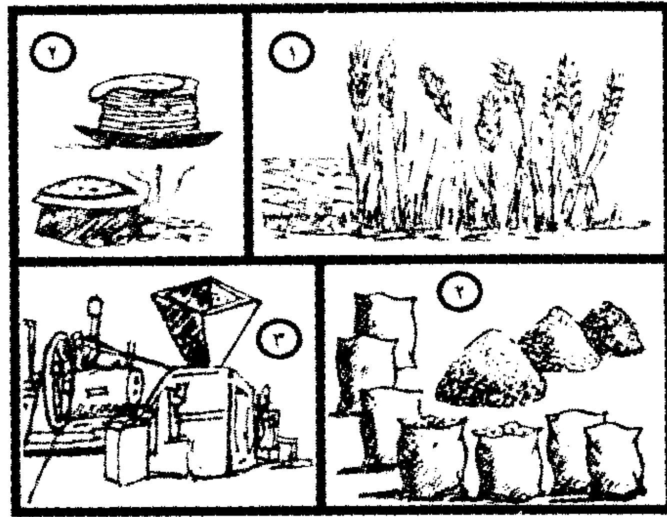
وَقَدْ زَادَ فِيْ هذَا الْمَسْجِدِ أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وَالْمُلُوْكُ بَعْدَهُ ، حَتَّىٰ تَرَوْنَهُ فِيْ هذَا الشَّكْلِ.

---

(١) مِرْبَدٌ جمع مَرَابِد : مَوْقف الإبل ومَحْبسها.

(٣٣)

كِسْـرَةٌ مِـنَ الْـخُبْـزِ



مَـرَّةً أَخَـذْتُ كِسْـرَةً[١] مِـنَ الْخُبْـزِ لآكُلَهَـا فَقَـالَـتْ: مَهْـلاً يَا سَيِّدِي[٢]! إِنَّكَ غَيْرُ جَائِعٍ، وَقَدْ أَكَلْتَ أَخَوَاتِيْ، أَفَلاَ تُحِبُّ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْكَ قِصَّتِيْ، فَإِنَّهَا غَرِيْبَةٌ وَإِنَّهَا لَذِيْذَةٌ.

قُلْتُ: بَلَىٰ! أُرِيْدُ أَنْ أَسْمَعَ قِصَّتَكِ، فَلاَ آكُلُكِ حَتَّىٰ أَسْمَعَ مِنْكِ.

---

(١) كِسْرَة جمع كِسَر: القطعة المكسورة من الشيء.

(٢) مَهْلاً يا سيِّدي: رِفْقاً لا تَعْجل يا سيِّدي.

قَالَتْ: هَلْ تَظُنُّ يا سَيِّدِيْ! أَنِّي خُلِقْتُ هكَذَا؟ هَلْ سَمِعْتَ أَنَّ الْخُبْزَ يَنْبُتُ فِي الْحَقْلِ[1] أَوْ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؟ إِنَّكَ تَأْكُلُ مُسْتَرِيْحاً يَأْتِيْكَ رِزْقُكَ رَغَداً ، وَلٰكِنِّيْ لَمْ أَزَلْ أَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ[2] لأَجْلِكَ ، وَأَخْرُجُ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَىٰ مُصِيْبَةٍ وَمِنْ مَحْبِسٍ إِلَىٰ مَحْبِسٍ حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ يَدِكَ .

كَانَ مِنْ خَبَرِيْ أَنِّيْ كُنْتُ حَبَّةَ حِنْطَةٍ[3] مَعَ شَقِيْقَاتِيْ فِيْ غِرَارَةٍ[4] ، فَجَاءَ إِلَيْنَا رَجُلٌ ، فَأَخَذَنِيْ مَعَ رَفِيْقَاتِيْ ، فَبَذَرَنَا[5] فِي التُّرَابِ .

هُنَالِكَ فِي الْحَقْلِ أَبْصَرْتُ الدُّنْيَا وَأَصَابَتْنِي الشَّمْسُ وَكُنْتُ مَسْرُوْرَةً جِدّاً ، وَلٰكِنْ نَـزَلَ الْمَطَرُ ، وَدَخَلْتُ إِلَىٰ بَاطِنِ التُّرْبَةِ ، وَبَقِيْتُ مَدْفُوْنَةً أَيَّاماً ، وَأَخَذَ جِسْمِيْ يَكْبُرُ وَجِلْدِي يَضِيْقُ عَلَيَّ ، حَتَّىٰ انْشَقَّ جِلْدِي ، وَخَرَجَ مِنْهُ جُذَيْرَاتٌ كَالشَّعْرِ ، ثُمَّ خَرَجَتْ وُرَيْقَاتٌ شَقَّتِ التُّرْبَةَ ، وَظَهَرَتْ فَوْقَ الأَرْضِ ، فَكُنْتُ يَا سَيِّدِيْ! سُنْبُلَةً قَائِمَةً عَلَىٰ سَاقٍ .

---

(١) حَقْل جمع حُقُول: كل قطعة من الأرض قابلة للحرث والزرع.
(٢) مَشَقَّة جمع مَشَاق ومَشَقَّات: عناء وتعب.
(٣) حِنْطَةٌ جمع حِنَط: قمح.
(٤) غِرَارَة جمع غَرَائِر: وعاء من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب.
(٥) بَذَرَ يَبْذُرُ الحَب: أَلْقَاه في الأرض متفرِّقاً للزراعة.

ثُمَّ أَصْبَحْتُ سُنْبُلَةً صَفْرَاءَ فِيْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ ، وَكُنْتُ أَرَى صَدِيْقَاتِيْ وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ وَنَهْتَزُّ طَرَباً ، وَكَانَتْ أَيَّاماً جَمِيْلَةً .

وَمَا طَالَتْ تِلْكَ الْمُدَّةُ فَقَدْ جَاءَ رِجَالٌ يَحْمِلُوْنَ الْمَنَاجِلَ[1] ، فَحَصَدُوْا وَحَمَلُوْا ، وَانْتَقَلْتُ إِلَىٰ بَيْدَرٍ[2] وَمَكَثْتُ أَيَّاماً .

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الأَيَّام فَقَدْ جَاءَ ثِيْرَانٌ فَدَاسَتْنَا[3] بِأَقْدَامِهَا ، وَفَارَقْتُ السُّنْبُلَةَ ، وَكُنْتُ طَرِيْحاً[4] ذَلِيْلاً .

ثُمَّ أَخَذَنَا رِجَالٌ وَذَرَوْنَا[5] فِي الرِّيْحِ ، فَطَارَ الْقِشْرُ وَبَقِيَ الْقَمْحُ .

وَكَانَ أَشَدَّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ: أَنَّ رَجُلاً حَمَلَنِيْ إِلَىٰ شَيْءٍ مُدَوَّرٍ مِنَ الْحَجَرِ ، فِيْهِ ثَقْبٌ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ لَهُ صَوْتاً شَدِيْداً كَرِيْهاً وَجَعْجَعَةً[6] ، فَأَلْقَانِيْ فِيْهِ فَطَحَنَنِيْ طَحْناً ، هَلْ تَعْرِفُ اسمَهُ يَا سَيِّدِي؟ . ذٰلِكَ هُوَ الطَّاحُوْنُ أَوِ الرَّحَىٰ .

---

(١) مِنْجَل جمع مَنَاجِل: آلة لحصْدِ الزرْع أو لِحَشِّ العُشْبِ .
(٢) بَـيْدر جمع بَيَـادِر: الموضع يُجْمع فيه ما يُحصد من الحبوب .
(٣) دَاسَ يَدُوْسُ الشيءَ: وَطِئه وَطْئاً شديداً بقدمه .
(٤) طَرِيْح: مَتْرُوك .
(٥) ذَرَا يَذْرُو: أطار وفرَّق .
(٦) جَعْجَعَة: تصويت الرحىٰ .

فَلَمَّا صِرْتُ دَقِيْقاً أَخَذَنِي الْخَبَّازُ وَوَضَعَنِيْ فِيْ مِعْجَنَةٍ، وَغَمَرَنِيْ بِالْمَاءِ النَّقِيِّ، وَغَمَزَنِيْ، حَتَّىٰ صِرْتُ عَجِيْنَاً، فَصَنَعَ مِنِّيْ كُرَةً.

هُنَالِكَ جَاءَتِ الْمُصِيْبَةُ، فَقَدْ دَحَانِيْ[1] عَلَىٰ حَدِيْدٍ مُحَمّىً تُسَمُّوْنَهُ الطَّابَقَ، لاَ تَسْأَلْ يَاسَيِّدِيْ! عَنْ أَلَمِيْ وَاحْتِرَاقِيْ فَقَدْ الْتَوَيْتُ[2] وَانْكَمَشْتُ[3]، وَلٰكِنَّ الْخَبَّازَ لَمْ يَرْحَمْنِيْ وَلَمْ يَرِقَّ لِيْ، حَتَّىٰ كُنْتُ رِقَاقاً[4].

كُلُّ ذٰلِكَ فِيْ سَبِيْلِكَ يَا سَيِّدِيْ، كُنْتُ أَشْقَىٰ لِنَعِيْمِكَ وَأَتْعَبُ لِلَذَّتِكَ، وَأَنْتَقِلُ مِنْ طَوْرٍ[5] إِلَىٰ طَوْرٍ، لِتَأْكُلَ هَنِيْئاً وَتَشْبَعَ، أَفَلاَ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقُوْلَ:

«الْحَمْدُ لله الَّذِيْ أَطْعَمَنِيْ وَسَقَانِيْ وَجَعَلَنِيْ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ».



---

(١) دَحَا يَدْحو: بَسَطَ ومَدَّ ووسَّعَ.
(٢) الْتَوَىٰ يَلْتَوِيْ الشيءُ: اعْوَجَّ.
(٣) انكَمَشَ يَنْكَمِشُ: انْفَرَدَ وانْطَوَىٰ.
(٤) رِقَاق: خبز منبسط رقيق.
(٥) طَوْر جمع أَطْوَار: حال، هيئة.

(٣٤)

عيَادَةُ المَرِيْضِ

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ يَوْمَ السَّبْتِ فَوَجَدَ أَنَّ صَدِيْقَهُ حُسَيْناً مَا حَضَرَ فِي الْمَدْرَسَةِ ، فَسَأَلَ أَخَاهُ عَلِيّاً عَنِ السَّبَبِ ، فَقَالَ: إِنَّهُ مَحْمُوْمٌ[١] مِنْ يَوْمِ الْخَمِيْسِ ، فَعَزَمَ حَامِدٌ عَلَىٰ أَنْ يَعُوْدَهُ فِي الرُّجُوْعِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ.

ذَهَبَ حَامِدٌ إِلَىٰ بَيْتِ حُسَيْنٍ فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ ، فَخَرَجَ أَبُوْ حُسَيْنٍ ، قَال حَامِدٌ: إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أَعُوْدَ صَدِيْقِيْ حُسَيْناً فَقَدْ أَخْبَرَنِيْ عَلِيٌّ أَنَّهُ مَرِيْضٌ ، قَالَ أَبُوْهُ: نَعَمْ! إِنَّهُ أَصَابَتْهُ الْحُمَّىٰ[٢] يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَعُوْدَهُ.

صَعِدَ حَامِدٌ إِلَىٰ السَّطْحِ ، وَدَخَلَ غُرْفَةَ حُسَيْنٍ ، فَرَأَىٰ حُسَيْناً

---

(١) مَحْمُومٌ: مُصَابٌ بالحمَّىٰ.

(٢) حُمَّىٰ : علّة يَسْتَحرُّ بها الجسم.

مُضْطَجِعاً ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِلُطْفٍ ، وَدَنَا مِنْهُ ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَخِيْ! عَافَاكَ اللهُ.

قَالَ حُسَيْنٌ: قَدْ أَصَابَتْنِيْ الْحُمَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَكَانَتْ شَدِيْدَةً يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَخَفَّتْ فِيْ اللَّيْلِ ، وَلٰكِنِّي أَشْكُو الصُّدَاعَ[١] وَالدُّوَارَ[٢] ، وَقَدْ ضَعُفْتُ كَثِيْراً ، كَأَنِّي مَرِيْضٌ مُنْذُ أَيَّامٍ ، وَلاَ أَشْتَهِي الطَّعَامَ.

قَالَ حَامِدٌ: لَا بَأْسَ طَهُوْرٌ إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَهَلْ عَادَكَ طَبِيْبٌ؟

قَالَ حُسَيْنٌ: نَعَمْ! قَدْ عَادَنِيْ طَبِيْبٌ أَمْسِ ، وَمَوْعِدُهُ الآنَ.

وَلَمْ يَجْلِسْ حَامِدٌ إِلاَّ قَلِيْلاً ، حَتَّىٰ حَضَرَ الطَّبِيْبُ فَجَسَّ[٣] يَدَ حُسَيْنٍ ، وَقَاسَ الْحَرَارَةَ ، وَامْتَحَنَ الصَّدْرَ بِالسَّمَّاعَةِ[٤] ، وَأَبْدَىٰ الارْتِيَاحَ ، وَغَيَّرَ فِي الْوَصْفَةِ قَلِيْلاً ، وَقَالَ: إِنَّهُ بَارِىءٌ بِحَمْدِ اللهِ ، وَأَوْصَىٰ[٥] أَبَاهُ بِأَنْ يَحْمِيَ حُسَيْناً الْمَاءَ الْبَارِدَ وَالزَّيْتَ وَالْخُرُوْجَ فِي الْهَوَاءِ وَالتَّعَبِ ، وَيَسْقِيَهُ اللَّبَنَ وَمَاءَ الشَّعِيْرِ وَمَاءَ الْفَوَاكِهِ.

---

(١) صُدَاع: وَجْعُ الرأس.
(٢) دُوَار: دَوْرَان يَأخذ بالرأس (دوخة) لمرض أو سفر.
(٣) جَسَّ يَجُسُّ اليَدَ: مَسَّها.
(٤) السَّمَّاعَة: آلة يَسْمَع بها الطبيب نبض القلب.
(٥) أوْصَاه يُوْصِيْ بأمْر: أَمَرَه به.

وَجَلَسَ حَامِدٌ قَلِيْلاً ، وَقَالَ: إِنَّ الْعَائِدَ إِذَا أَطَالَ الْجُلُوْسَ عِنْدَ الْمَرِيْضِ ، شَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَأَسْتَأْذِنُ وَأَنْصَرِفُ ، وَأَعُوْد إِنْ شَاءَ اللهُ غَداً .

* * *

(٣٥)

الْكِيْـمِيْـاء

كَانَ الأَوْلَادُ يَتَحَدَّثُوْنَ فِي اللَّيْلِ وَيَتَسَامَرُوْنَ[١] ، وَكَانَ أَكْثَرُ حَدِيْثِهِمْ عَنِ الْكِيْمِيَاءِ ، وَكَانَ إِسْمَاعِيْلُ يَقُوْلُ: سَمِعْتُ أَنَّ شَيْخاً يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً ، وَيَجْعَلُ نُقُوْدَ النِّيْكَلِ وَالرَّصَاصِ: دَنَانِيْرَ ذَهَبِيَّةً وَجُنَيْهَاتٍ .

وَصَدَّقَهُ مَحْمُوْدٌ وَقَالَ: نَعَمْ! إِنَّهُ فَنٌّ كَانَ النَّاسُ يَعْرِفُوْنَهُ ، وَلٰكِنِ انْقَرَضَ[٢] عُلَمَاءُ هٰذَا الفَنِّ ، وَطُوِيَ ذٰلِكَ الْبِسَاطُ .

فَتَأَسَّفَ الأَوْلَادُ كَثِيْراً ، وَحَزِنُوْا ، وَقَالُوْا: لَوْ وَجَدْنَا أَحَداً يَعْرِفُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ ، لَتَعَلَّمْنَاهَا مِنْهُ ، وَصِرْنَا أَغْنِيَاءَ بِدُوْنِ تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ .

---

(١) تَسَامَرَ يَتَسَامَرُ: تَحَدَّث بعضهم إلى بعض ليلاً .

(٢) انْقَرَضَ يَنْقَرِضُ القوم: ماتوا .

وَكَانَ أَبُوْهُ بِمَسْمَعٍ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : لاَ تَتَأَسَّفُوْا يَا أَوْلاَدِيْ! فَإِنِّي أَعْرِفُ الْكِيْمِيَاءَ ، وَأَنْتُمْ أَعَزُّ النَّاسِ عِنْدِيْ ، فَأَنَا أُعَلِّمُكُمْ غَداً ، وَأُخْبِرُكُمْ بِصِنَاعَةِ الْكِيْمِيَاءِ.

فَرِحَ الأَوْلاَدُ كَثِيْراً ، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْتَظِرُوْا إِلَىٰ الصَّبَاحِ ، فَاسْتَطَالُوا اللَّيْلَ ، وَلٰكِنَّ وَالِدَهُمْ قَالَ لَهُمْ: «لاَ يُمْكِنُ تَعْلِيْمُ الْكِيْمِيَاءِ إِلاَّ فِي النَّهَارِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ فَنٌّ دَقِيْقٌ.

نَامَ الأَوْلاَدُ ، وَانْتَبَهُوْا مُبَكِّرِيْنَ ، وَلَمْ يَزَلْ إِسْمَاعِيْلُ وَمَحْمُوْدٌ يَرَيَانِ الْكِيْمِيَاءَ فِي الْمَنَامِ ، رَأَىٰ هَاشِمٌ أَنَّهُ فِيْ قَصْرٍ شَامِخٍ[1] وَلِبَاسٍ فَاخِرٍ ، وَقَدْ بَنَىٰ الْقَصْرَ ، وَصَنَعَ اللِّبَاسَ بِالْمَالِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ بِالْكِيْمِيَاءِ.

فَصَلَّوْا الصُّبْحَ ، وَجَلَسُوْا حَوْلَ أَبِيْهِمْ يَنْتَظِرُوْنَ فَرَاغَهُ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ ، وَأَتَمَّ أَبُوْهُمْ حِزْبَهُ ، وَقَالَ: هَلُمُّوْا[2] يَا أَبْنَائِيْ! فَخَرَجُوْا مَعَهُ ، وَقَدْ أَعْجَلَهُمُ الاشْتِيَاقُ إِلَىٰ الْكِيْمِيَاءِ مِنْ أَنْ يَفْطِرُوْا.

لَمْ يَزَلْ أَبُوْهُمْ يَسِيْرُ بِهِمْ طَرِيْقاً بَعْدَ طَرِيْقٍ ، حَتَّىٰ وَقَفَ بِهِمْ

---

(١) شَامِخ: عالٍ.

(٢) هَلُمُّوا: تعالوا.

عَلَىٰ حَقْلٍ يَحْرُثُهُ الْفَلاَّحُ ، وَفِيْ يَدِهِ السِّكَّةُ ، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلاَدِيْ! تَحْتَ سِكَّةِ الْمِحْرَاثِ.

فَتَعَجَّبَ الأَوْلاَدُ ، فَاسْتَفْسَرُوَا أَبَاهُمْ ، فَقَالَ الْوَالِدُ: أَلَمْ أَسْمَعْكُمْ تَقُوْلُوْنَ: الْكِيْمِيَاءُ يُحَوِّلُ التُّرَابَ ذَهَباً؟ أَلاَ يَتَحَوَّلُ هٰذَا التُّرَابُ ذَهَباً بَعْدَ أَيَّام بَلْ أَغْلَىٰ مِنَ الذَّهَبِ؟ وَمَا يُغْنِي الذَّهَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ؟ فَهٰذِهِ الْبُذُوْرُ الَّتِي بَذَرَهَا الْفَلاَّحُ ، وَاجْتَهَدَ فِيْهَا أَيَّاماً سَتَأْتِيْ بِحَاصِلٍ كَبِيْرٍ ، وَسَيَرُدُّ اللهُ إِلَيْهِ بِهٰذَا الْعَمَلِ أَضْعَافَ[1] مَا بَذَلَ.

ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ أَبُوْهُمْ عَلَىٰ مَصْنَع كَانَ النَّاسُ فِيْهِ عَاكِفِيْنَ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ ، وَالْعَرَقُ يَسِيْلُ مِنْ جِبَاهِهِمْ ، وَصَنَعُوْا أَشْيَاءَ مُفِيْدَةً جِدّاً تُثْمِرُ لَهُمْ مَالاً كَثِيْراً ، وَتَقْضِيْ لِلنَّاسِ حَاجَاتٍ كَبِيْرَةً ، فَقَالَ الْوَالِدُ: الْكِيْمِيَاءُ يَا أَوْلاَدِيْ! عَرَقُ الْجَبِيْنِ ، وَكَدُّ الْيَمِيْنِ ، ثُمَّ مَالَ بِهِمْ إِلَىٰ حَلْقَةِ مُعَلِّمٍ ، وَإِلَىٰ مَجْلِسِ وَاعِظ ، وَقَالَ: يَا أَوْلاَدِيْ! الإِنْسَانُ أَغْلَىٰ شَيْءٍ فِي الوُجُوْدِ ، وَتَثْقِيْفُهُ وَإِصْلاَحُهُ أَفْضَلُ مِنْ تَحْوِيْلِ التُّرَاب ذَهَباً.

فَإِذَا تَعَلَّمَ هٰؤلاَءِ الأَوْلاَدُ ، وَإِذَا اهْتَدَىٰ هٰؤُلاَءِ النَّاسُ ، كَانَ لِلْمُعَلِّمِ وَالْوَاعِظِ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، لَهُ أَجْرُ كُلِّ مَا يَعْمَلُ هٰؤُلاَءِ مِنْ

---

(١) ضِعْف جمع أَضْعَاف الشيء: مثله أو ما زَادَ على ذلك.

خَيْرٍ وَبِرٍّ ، وَلِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَيِّدِنَا عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ:

«يَا عَلِيُّ! لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَعَمِ» .

فَاقْتَنَعَ الأَوْلَادُ ، وَشَكَرُوْا أَبَاهُمْ ، وَرَجَعُوْا ، وَقَدْ تَعَلَّمُوا الْكِيْمِيَاءَ .

❊ ❊ ❊

(٣٦)

يَـوْمٌ صَـائِـفٌ

مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! يَا لَطِيْفُ! النَّاسُ فِيْ بُيُوْتِهِمْ لَا يَخْرُجُوْنَ خَوْفَ السَّمُوْمِ، وَقَدِ اتَّخَذُوْا سُتُوْراً مِنَ الْحَشِيْشِ يَـرُشُّوْنَ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَيُحَرِّكُوْنَ الْمَرَاوِحَ، وَقَدْ سَدُّوا النَّوَافِذَ، لِئَلَّا تَدْخُلَ مِنْهَا السَّمُوْمُ[١]، وَمَعَ ذٰلِكَ يَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ مِثْلِ الْجَمْرِ، هٰذَا، وَأَهْلُ الأَكْوَاخِ الْحَقِيْـرَةِ وَالْخُصَصِ[٢] وَالْبُيُوْتِ الْمَبْنِيَّـةِ مِنَ اللَّبِنِ أَنْعَمُ فِي الصَّيْفِ مِنْ أَهْلِ الْقُصُوْرِ الْمَبْنِيَّـةِ مِنَ الْجَصِّ[٣] وَالآجُرِّ، فَإِذَا رَشُّوا[٤] الْمَاءَ عَلَىٰ الأَرْضِ وَالْجُدْرَانِ، وَهَبَّتْ لَفْحَةٌ[٥] مِنْ سَمُوْمٍ تَحَوَّلَتْ نَفْحَةً مِنْ نَسِيْمٍ، وَحَسِبُوْا أَنَّهُمْ فِيْ جَنَّةٍ وَنَعِيْمٍ.

---

(١) سَمُوم: حَـرٌّ شديد.

(٢) خُصّ: جمع خُصَصٌ وأَخصاص: بيت من شجر أو قصب.

(٣) جَصّ: مادة كلسية بيضاء تُطلىٰ بها البيوت.

(٤) رَش يَـرُشُّ على الأرض: نَضَحَها وبَلَّها.

(٥) نَفحَة جمع نَفَحات: لَسْعَة النار.

اِرْتَفعَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ إِلَىٰ مِئَـةٍ وَثَمَانِي عَشَرَةَ نُقْطَةً ، فَعِيْلَ صَبْـرُ النَّـاسِ ، وَسَـافَـرَ الأَغْنِيْـاءُ إِلَـىٰ قُلَـلِ[1] الْجِبَـالِ حَيْـثُ يَصْطَافُوْنَ[2] وَيَقْضُونَ شَهْرَيْ مَايُوْ وَيُوْنِيَهْ حَتَّىٰ إِذَا نَـزَلَتِ الأَمْطَارُ ، وَلَطُفَ الْحَرُّ هَبَطُوْا إِلَىٰ الْمُدُنِ وَالسُّهُوْلِ.

وَبَقِيَ أَوْسَاطُ النَّاسِ ، وَأَهْلُ الأَشْغَالِ يَتَحَمَّلُوْنَ الْحَرَّ ، وَيَصْبِرُوْنَ لِلسَّمُوْمِ.

الآنَ رَكَدَتِ[3] السَّمُوْمُ ، وَمَالَتِ الشَّمْسُ ، وَطَابَ الْخُرُوْجُ ، وَانْتَشَرَ النَّاسُ فِي الْبَسَاتِيْنِ وَالمَيَادِيْنِ وَشَوَاطِىءِ الأَنْهَارِ يَتَرَوَّحُوْنَ وَيَتَنَزَّهُوْنَ ، فَلاَ تَجِدُ فِي الْبَيْتِ إِلاَّ شَيْخاً هَرِماً أَوِ امْرَأَةً أَوْ عَاجِزاً ، وَمَنْ حَبَسَهُ شُغْلٌ أَوْ مَرَضٌ أَوْ حَاجَةٌ ، وَقَدْ تَسْتَمِرُّ السَّمُوْمُ إِلَىٰ اللَّيْلِ ، فَلاَ يَسْتَرِيْحُ النَّاسُ وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ ، وَقَدْ يَحْتَبِسُ الْهَوَاءُ ، فَيَسِيْلُ الْعَرَقُ ، وَتَـتَحَرَّكُ الْمَرَاوِحُ ، وَيَطِيْرُ النَّوْمُ.



(١) قُـلَّـة جمع قُلَل: قمَّة.
(٢) اصْطَاف يَصْطَافُ بالمكان: أَمْضَىٰ صَيْفَه فيه.
(٣) رَكَدَ يَرْكُدُ السمومُ: سَكَنَ وهَدأ وثَبُتَ.

(٣٧)

النَّظَافَةُ

طَاهِرٌ ابْنُ فَلَّاحٍ ، يَسْكُنُ أَبُوْهُ فِي الْقَرْيَةِ وَيُرْسِلُ إِلَىٰ طَاهِرٍ قَلِيْلاً مِنَ النُّقُوْدِ كُلَّ شَهْرٍ .

وَلٰكِنَّ طَاهِراً وَلَدٌ مُدبِّرٌ عَاقِلٌ ، ثِيَابُهُ مُتَوَاضِعَةٌ ، وَلٰكِنَّهَا دَائِماً نَظِيْفَةٌ مُرَتَّبَةٌ لا تَرَىٰ فِيْهَا وَسَخاً ، يَغْسِلُهَا بِيدِهِ كُل جُمْعَةٍ ، وَعِنْدَهُ إِبْرَةٌ وَخَيْطٌ ، فَإِذَا تَخَرَّقَ[1] ثَوْبٌ خَاطَهُ بِالإِبْرَةِ أَوْ رَقَعَهُ بِنَفْسِهِ .

وَلَا يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ مَرْقُوْعٍ ، وَلٰكِنَّهُ يَخْجَلُ إِذَا خَرَجَ فِيْ ثَوْبٍ وَسِخٍ ، وَمَا رَآهُ أَصْدِقَاؤُهُ فِيْ ثِيَابٍ وَسِخَةٍ أَبَداً ، فَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُ غَنِيٌّ ، عِنْدَهُ ثِيَابٌ كَثِيْرَةٌ ، وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَرْبَعَ بِذْلَاتٍ[2] .

وَإِذَا دَخَلْتَ فِيْ حُجْرَتِهِ رَأَيْتَهَا نَظِيْفَةً مُنْتَظِمَةً ، وَرَأَيْتَ كُلَّ

---

(١) تَخَرَّقَ يَتَخَرَّقُ الثوبُ : اتَّسَعَ شَقُّه .

(٢) بِذْلَة جمع بِذْلَاتٌ : مَا يُلْبَسُ في المهنة والعمل .

شَيْءٍ فِيْ مَحَلِّهِ ، فَلاَ يَضِيْعُ وَقْتُهُ فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَالْتِمَاسِهَا ، وَإِذَا دَخَلَ فِي الظَّلاَمِ قَدَرَ عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مَا يُرِيْدُهُ لأَنَّهُ فِيْ مَحَلِّهِ.

وَكُتُبُهُ فِيْ نِظَامٍ دَائِمَاً ، وَهِيَ نَظِيْفَةٌ لاَ تَرَىٰ عَلَيْهَا غُبَاراً وَلاَ تُرَاباً ، وَلاَ تَرَىٰ فِيْهَا أَثَرَ دُهْنٍ وَمِسْحَةَ يَدٍ ، وَلاَ كِتَابَةً وَتَمْرِيْناً ، كَأَنَّهُ اشْتَرَاهَا الْيَوْمَ ، وَلاَ يَكْتُبُ اسْمَهُ إِلاَّ فِيْ مَكَانٍ وَاحِدٍ بِخَطٍ جَيِّدٍ.

وَإِذَا قَامَ طَاهِرٌ فِي الصَّبَاحِ تَوَضَّأَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ وَاسْتَاكَ[1] ، وَنَظَّفَ أَسْنَانَهُ.

وَيَغْتَسِلُ طَاهِرٌ كُلَّ يَوْمٍ فِي الصَّيْفِ ، وَأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِيْ أُسْبُوْعٍ فِي الشِّتَاءِ ، لِذٰلِكَ تَرَاهُ يَمْرَضُ قَلِيْلاً ، وَهُوَ قَوِيٌّ نَشِيْطٌ.

وَفِيْ فَصْلِ طَاهِرٍ وَلَدٌ غَنِيٌّ اسْمُهُ شَاهِدٌ ، وَهُوَ ضِدُّ طَاهِرٍ فِي النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ ، فَثِيَابُهُ غَالِيَةٌ جَمِيْلَةٌ وَلٰكِنَّهَا فِي الْغَالِبِ وَسِخَةٌ دَنِسَةٌ[2] ، وَهُوَ يُغَيِّرُ مَلاَبِسَهُ سَرِيْعاً ، وَلٰكِنَّهُ يُوَسِّخُهَا سَرِيْعاً.

وَكَذٰلِكَ كُتُبُهُ دَائِماً فَجِلْدُهَا مَشْقُوْقٌ ، وَوَرَقُهَا مَخْرُوْقٌ ، كَأَنَّ طِفْلاً عَبَثَ بِهَا أَوْ مَشَتْ عَلَيْهَا سِكَّةُ الْفَلاَّحِ أَوْ دَاسَتْهَا مَرْكَبَةٌ.

وَكُتُبُهُ وَدَفَاتِرُهُ مَعْرِضٌ ، أَوْ مُتْحَفٌ ، تَرَىٰ فِيْهَا رُسُوْماً

---

(١) اسْتَاكَ يَسْتَاكُ: نَظَّفَ الأَسنانَ بالسِّواك.

(٢) دَنِس: وَسِخٌ.

وَصُوَراً ، وَتَوْقِيْعَاتٍ وَتَمْرِيْنَاتٍ ، وَأَشْكَالاً رِيَاضِيَّةً وَخَرَائِطَ جُغْرَافِيَّةً.

وَإِذَا قُلْتَ لِشَاهِدٍ: لِمَاذَا لاَ تُحَافِظُ عَلَىٰ النَّظَافَةِ وَالنِّظَامِ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَضِيْعُ فِيْ ذٰلِكَ وَقْتٌ كَثِيْرٌ ، وَالْوَقْتُ شَيْءٌ غَالٍ.

وَتَرَاهُ يُضَيِّعُ وَقْتاً طَوِيْلاً فِيْ تَفَقُّدِ الأَشْيَاءِ وَتَغْيِيْرِ الْمَلاَبِسِ بِسُرْعَةٍ ، وَلاَ يَفْطَنُ[1] لِذٰلِكَ.

* * *

(١) فَطِنَ يَفْطَنُ له أو إليه: تَـنَـبَّه له.

(٣٨)

الْـحَنِـيْـنُ إِلَـىٰ الـشَّهَـادَةِ

(١)

لَمَّا أَرَادَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ الْخُرُوجَ إِلَىٰ بَدْرٍ لِيُقَاتِلَ الْمُشْرِكِيْنَ وَخَرَجَ غُلَامٌ اسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عُمُرُهُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً.

وَكَانَ عُمَيْرٌ يَخَافُ أَلَّا يَقْبَلُهُ النَّبِيُّ ﷺ، لأَنَّهُ صَغِيْرٌ، فَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَكَانَ يَتَوَارَىٰ[1].

وَلٰكِنْ رَآهُ أَخُوْهُ الأَكْبَرُ سَعْدُ بْنُ أَبِيْ وَقَّاصٍ فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ يَا أَخِيْ؟ لأَيِّ شَيْءٍ تَتَوَارَىٰ؟

قَالَ عُمَيْرٌ: أَخَافُ أَنْ يَـرُدَّنِـيْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فَإِنِّي صَغِيْرٌ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخُرُوْجَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ.

---

(١) تَوَارى يَتَوَارى: اسْتَتَر واخْتَفَىٰ.

وَكَانَ كَمَا خَافَ عُمَيْرٌ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَأَىٰ أَنَّهُ صَغِيْـرٌ ، وَالْحَـرْبُ لَيْسَـتْ مِـنْ شُغْـلِ الأَطْفَـالِ وَالْغِلْمَـانِ ، وَمَا يَصْنَعُوْنَ فِي الْحَرْبِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ عَلَىٰ الرِّجَالِ؟

وَلٰكِنَّ عُمَيْراً مَا أَحَبَّ أَنْ يَنْصَرِفَ ، وَيَقْعُدَ فِي الْبَيْتِ ، أَوْ يَلْعَبَ مَعَ أَتْرَابِهِ ، وَأَصْدِقَائِهِ فِي الْمَدِيْنَةِ ، وَإِنَّهُ لَيُرِيْدُ الشَّهَادَةَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ!

وَلٰكِنَّ عُمَيْراً لاَ يَعْصِيْ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ ، وَلاَ يُعَانِدُ[1] ، فَإِنَّهُ لاَ يُـرِيْـدُ إِلاَّ رِضَـاءَ اللهِ ، وَهَـلْ يَنَـالُ رِضَـاءَ اللهِ إِذَا عَصَـىٰ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ؟ أَبَداً!

كَانَ عُمَيْرٌ فِيْ حَيْرَةٍ وَحُزْنٍ شَدِيْدٍ ، هُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ ، وَلٰكِنَّهُ يَحِنُّ[2] إِلَىٰ الشَّهَادَةِ ، وَإِلَىٰ الْمَوْتِ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَيَحِنُّ إِلَىٰ الْجَنَّةِ ، وَيَـرَاهَا غَيْرَ بَعِيْدَةٍ ، وَلٰكِنْ كَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهَا ، وَهُوَ لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْقِتَالِ؟!

كُلُّ ذٰلِكَ ثَقُلَ[3] عَلَىٰ عُمَيْرٍ ، وَكَانَ قَلْبُهُ صَغِيْراً فَبَكَىٰ ، وَلَمَا

---

(١) عَانَـدَ يُـعَانِدُ: خَالَفَ وَعَارَضَ.

(٢) حَنَّ يَحِنُّ إليه: اشْتَاقَ ، وعليه: عَطَفَ.

(٣) ثَـقُلَ يَـثْـقُلُ عليه: صعب عليه.

بَكَىٰ عُمَيْرٌ رَقَّ[1] لَهُ قَلْبُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ رَقِيْقاً رَفِيْقاً فَأَجَازَهُ.

لاَ تَسْأَلُوْا عَنْ فَرَحِ عُمَيرٍ وَسُرُوْرِهِ لَمَّا أَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَكَأَنَّمَا نَالَ تَذْكِرَةَ الْجَنَّةِ.

وَخَرَجَ عُمَيْرٌ مَعَ أَخِيْهِ وَمَعَ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَكُلُّهُمْ كِبَارٌ وَأَقْوِيَاءُ ، وَكَانَ كَمَا أَرَادَ ، فَقَدْ قُتِلَ شَهِيْداً فِي الْغَزْوَةِ ، وَسَبَقَ كَثِيْراً مِنَ الشُّبَّانِ وَالشُّيُوْخِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَيْرٍ وَأَرْضَاهُ.

* * *

(١) رَقَّ يَرِقُّ له: رَحِمَهُ.

(٣٩)

الْحَنِيْنُ إِلَىٰ الشَّهَادَةِ

(٢)

وَلَمَّا خَرَجَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ أُحُدٍ لِقِتَالِ قُرَيْشٍ خَرَجَ مَعَهُ مِنَ الْمَدِيْنَةِ غِلْمَانٌ يُحِبُّوْنَ الْجِهَادَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَكَانُوا صِغَاراً ، لَمْ يَتَجَاوَزُوا الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ ، فَرَدَّهُمْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، لأَنَّهُمْ صِغَارٌ لَمْ يَبْلُغُوْا سِنَّ الْقِتَالِ ، فَيَكُوْنُوْنَ كَالْمَتَاعِ ، وَيَشْغُلُوْنَ الْكِبَارَ أَيْضاً يُرَاقِبُوْنَهُمْ[1] وَيَحْرِسُوْنَهُمْ .

وَكَانَ فِيْ هَؤُلاَءِ الْغِلْمَانِ وَلَدٌ ، اسْمُهُ رَافِعُ بنُ خَدِيْجٍ ، وَهُوَ دُوْنَ الْخَامِسَةَ عَشَرَةَ مِنْ سِنِّهِ ، وَكَانَ يَتَطَاوَلُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ ، لِيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ كَبِيْرٌ ، قَدْ بَلَغَ سِنَّ الْقِتَالِ ، فَلاَ يُفْطَنُ لِصِغَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِهِ .

---

(١) رَاقَبَ يُرَاقِبُ : حَرَسَ وَلاَحَظَ .

وَلٰكِـنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ رَدَّهُ ، لأنَّـهُ عَـرَفَ أَنَّـهُ صَغِيْـرٌ ، وَأَنَّـهُ يتَطَاوَلُ ، فشَفَعَ[1] لَهُ أَبُوْهُ ، وَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! إِنَّ ابْنِي رَافِعاً رَامٍ ، فَأَذِنَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ.

فَفَـرِحَ رَافِـعٌ كَثِيْـراً لَمَّـا أَذِنَ رَسُـوْلُ اللهِ ﷺ ، وَخَـرَجَ مَـعَ الْمُجَاهِدِيْنَ ، وَهُوَ أَكْثَرُ سُرُوْرَاً مِنْ غِلْمَانٍ يَخْرُجُوْنَ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ يَوْمَ الْعِيْدِ فِيْ لِبَاسٍ جَدِيْدٍ.

وَكَانَ وَلَدٌ آخَرُ اسْمُهُ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ فِيْ سِنِّ رَافِعٍ ، فَعُرِضَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بَعْدَ رَافِعٍ فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لِصِغَرِهِ أَيْضاً ، فَقَالَ سَمُرَةُ: لَقَدْ أَجَزْتَ رَافِعاً وَرَدَدْتَنِيْ، وَلَوْ صَارَعْتُهُ[2] لَصَرَعْتُهُ.

فَأَمَرَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ سَمُرَةَ وَرَافِعاً بِالْمُصَارَعَةِ فَصَرَعَ سَمُرَةُ رَافِعاً كَمَا قَالَ ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُسْمَحَ لَهُ بِالدُّخُوْلِ فِي صَفِّ الْمُجَاهِدِيْنَ.

فَأَجَازَ رَسُوْلُ اللهِ سَمُرَةَ لِلْخُرُوجِ ، فَخَرَجَ سَمُرَةَ وَقَاتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ.

رَضِيَ اللهُ عَنْ رَافِعٍ وَسَمُرَةَ ، وَرَزَقَنَا اتِّبَاعَهُمَا.

* * *

---

(١) شفَعَ يَشْفَعُ له إلى فلان: سَأَلَ فلاناً التجاوز عن ذنبه.

(٢) صَارَعَ يُصَارِعُ: غَالَبَ في المصارعة.

(٤٠)

كُنْ أَحَدَ السَّبْعَةِ

(١)

كَانَ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يُوْنِيُوْ يَوْمَاً شَدِيْدَ الْحَرِّ ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ ، فَكَانَ مَحْمُوْدٌ وَأَحْمَدُ وَعُثْمَانُ فِي الْبَيْتِ ، وَكَانُوْا مَعَ أَبِيْهِمْ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي النَّهَارِ ، وَكَانُوْا يَتَأَفَّفُوْنَ[١] مِنَ الْحَرِّ ، وَيَتَقَلَّبُوْنَ عَلَىٰ الْفِرَاشِ كَأَنَّهُمْ عَلَىٰ الْجَمْرِ .

قَالَ مَحْمُوْدٌ: يَا لَطِيْفُ! مَا أَشَدَّ الْحَرَّ! .

قَالَ أَبُوْهُمْ سُلَيْمَانُ: أَتَعْرِفُ يَا مَحْمُوْدُ! كَمْ تَبْعُدُ الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ؟ .

مَحْمُوْدٌ: لَا يَا أَبِيْ ! وَلٰكِنِّيْ أَعْرِفُ أَنَّها بَعِيْدَةٌ جِدّاً .

---

(١) تَأَفَّفَ يَتَأَفَّفُ مِن الحرّ: تَضَجَّرَ منه .

سُلَيْمَانُ: سَتَقْرَأُ فِي الْمَدْرَسَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَبْعُدُ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِيْنَ مَلْيُوْناً مِنَ الأَمْيَالِ ، وَالْحَرُّ كَمَا تَرَىٰ ، فَكَيْفَ إِذَا دَنَتِ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَكُوْنَ مِقْدَارَ مِيْلٍ؟!

مَحْمُوْدٌ: الْعِيَاذُ بِاللهِ! وَمَتَىٰ هٰذَا يَا أَبِيْ؟

سُلَيْمَانُ: ذٰلِكَ يَا بُنَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْن.

أَحْمَدُ: وَكَيْفَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا أَبَتِ؟.

سُلَيْمَانُ: يَكُوْنُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ(١) ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ(٢) الْعَرَقُ إِلْجَاماً.

عُثْمَانُ: أَوَلَيْسَ هُنَالِكَ ظِلٌّ أَوْ مَكَانٌ يَسْتَظِلُّ بِهِ النَّاسُ؟

سُلَيْمَانُ: بَلَىٰ يَا وَلَدِيْ! فَهُنَالِكَ ظِلٌّ لاَ يَنْعَمُ بِهِ إِلاَّ سَبْعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ.

الأَوْلاَدُ: وَمَنْ أُوْلٰئِكَ السُّعَدَاءُ يَا أَبَانَا؟ لَعَلَّنَا نَجْتَهِدُ أَنْ نَكُوْنَ مِنْهُمْ.

---

(١) حَقْوَ جمع أحْقَاء: خَصْر ووَسْط.

(٢) ألْجَمَ يُلْجِمُ العرق: بَلَغَ فاه.

سُلَيْمَانُ: يَا أَوْلَادِيْ! يَنْبَغِيْ[1] لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَجْتَهِدَ أَنْ يَكُوْنَ أَحَدَ السَّبْعَةِ، وَأَنَا أَعُدُّ لَكُمْ أُوْلٰئِكَ السَّبْعَةَ:

(١) إِمَامٌ عَادِلٌ.

وَقَطَعَ عَلَيْهِ أَحَدُ الأَوْلَادِ، وَقَالَ: وَمَنْ هُوَ الإِمَامُ، أَهٰذَا الَّذِي يُصَلِّيْ بِالنَّاسِ؟

سُلَيْمَانُ: هُوَ أَيْضاً عَلٰى خَيْرٍ، لٰكِنَّ الْمُرَادُ هُنَا أَمِيْرُ الْمُسْلِمِيْنَ.

وَابْتَدرَ[2] الأَوْلَادُ، وَقَالُوْا: قَدْ فَهِمْنَا، هٰذَا كَالخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ، وَقَدْ سَمِعْنَا كَثِيْراً مِنْ حِكَايَاتِهِمْ مِنْ أُمِّنَا.

* * *

---

(١) يَنْبَغِي له: يَلْزم أو يَجِبُ عليه.
(٢) ابْتَدَرَ يَبْتَدِرُ: عَاجَلَ.

(٤١)

كُـنْ أَحَـدَ الـسَبْـعَـــةِ

(٢)

(٢) قَالَ سُلَيْمَانُ: وَالثَّانِيْ يَا أَوْلَادِيْ! شَابٌّ نَشَأَ فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

هُنَـالِـكَ وَقَـفَ الشَّيْـخُ ، وَقَـالَ: يُمْكِـنُ كُـلّ وَاحِـدٍ مِنْكُـمْ يَا أَوْلَادِيْ! أَنْ يَكُوْنَ ذٰلِكَ الشَّابَّ السَّعِيْدَ ، وَلٰكِنْ إِذَا ضَيَّعْتُمْ فُرْصَةَ الشَّبَابِ ، فَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَـةُ.

(٣) رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ.

قَالَ الأَوْلَادُ: هُوَ كَالشَّيْخ عَبْدِ الْغَنِيِّ فِيْ حَيِّنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَرْتَاحُ إِلَّا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَلَا تَفُوْتُهُ جَمَاعَةٌ ، وَلَا نَظُنُّهُ يَبِيْتُ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا يَا أَوْلَادِيْ! وَلٰكِنَّهُ مُحَافِظٌ عَلَىٰ الصَّلَاةِ

وَالْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِيْ أَنَّهُ مَا فَاتَتْهُ صَلاَةٌ فِيْ جَمَاعَةٍ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ.

(٤) رَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ.

وَإِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَـرَوْهُمَا ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ الشَّيْخِ صَالِحٍ وَالشَّيْخِ حَمْزَةَ ، فَهٰذَا مِنَ الْهِنْدِ ، وَذٰلِكَ مِنْ بُخَارىٰ ، وَهُمَا أَخَوَانِ فِي اللهِ.

وَيُمْكِنُ كُلّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ هٰذِهِ الْفَضِيْلَةَ ، وَذٰلِكَ بِأَنْ يَخْتَارَ مِنْ صَفِّهِ وَرُفْقَتِهِ[1] الصَّالِحَ مِنَ الأَوْلاَدِ فَيُصَادِقهُ ، وَيَجْتَهِدُ أَنْ تَكُوْنَ صَدَاقَتُهُ لِلدِّيْنِ.

(٥) وَرَجُلٌ اقْتَدىٰ بِيُوْسُفَ (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) فِي العِفَّةِ[2] وَالأَمَانَةِ ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ قِصَّتَهُ.

قَالَ الأَوْلاَدُ: نَعَمْ!

(٦) وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِيْنُهُ.

وَذٰلِكَ مِثْلُ جَدِّكُمْ ، فَإِنَّا لَمْ نَعْرِفْ بِرَّهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَىٰ لْمَسَاكِيْنِ وَالضَّعَفَةِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ إِلاَّ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَدْ جَاءَتِ

---

١) رُفْقَة جمع رِفَاق: جماعَة مترافقون.

٢) عِفَّة: ترك الشهوات والتَّجنب منها بكل شيء.

الْعَجَائِزُ وَالأَرَامِلُ[1] يَبْكِيْنَهُ ، وَيَذْكُرْنَ خَيْرَهُ وَبِرَّهُ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِيْ أَشْرَافٌ مِنْ أَهْلِ هذَا الْحَيِّ أَنَّهُ كَانَ يُوَاسِيْهِمْ ، وَيَصِلُهُمْ بِمَعْرُوْفٍ[2] كُلَّ شَهْرٍ ، وَلَمْ نَعْلَمْ ذَلِكَ أَهْلَ الْبَيْتِ .

(٧) وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ .

قَالَ الأَوْلاَدُ : أَمَّا نَحْنُ فَنَجْتَهِدُ جَمِيْعاً أَنْ نَكُوْنَ شُبَّاناً نَشَؤُوْا فِيْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَنَجْتَهِدُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ أَيْضاً ، وَلَعَلَّنَا يَا أَبَانَا إِذَا جَمَعْنَا مِنْهَا خِصَالاً نَنَالُ بِهَا مَكَاناً خَاصّاً فِيْ ذٰلِكَ الظِّلِّ أَيْضاً ، فَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَأْتِي بِفَضِيْلَةٍ ، وَبَيْنَ مَنْ يَأْتِي بِفَضَائِلَ .

سُلَيْمَانُ : هُوَ كَذٰلِكَ «إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِيْنَ ، وَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» .



---

(١) أَرْمَلَة جـ أَرَامِل : الَّتِي مات زوجها .

(٢) وَصَلَ يَصِلُ : بَرَّ وَأَحْسَنَ المعاملةَ .

(٤٢)
الْعَيْنُ

(١)

الْعَيْنُ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ تَعَالَىٰ ، فَقَدْ خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ مِرْآةً صَافِيَةً تَتَحَرَّكُ يَمِيْناً وَشِمَالاً ، وَفَوْقُ وَتَحْتُ ، يَنْظُرُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَىٰ جَمِيْعِ الْجِهَاتِ[١] ، ثُمَّ وَضَعَهَا فِيْ مِحْجَرٍ صُلْبٍ مِنَ الْعَظْمِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْجُفُوْنِ[٢] غِطَاءً يَحْفَظُهَا مِنَ الأَذَىٰ ، وَحَاطَهَا بِأَهْدَابٍ[٣] مِنَ الشَّعْرِ لِتَكُوْنَ سِيَاجاً[٤] يذُبُّ عَنْهَا الذُّبَابَ

---

(١) جِهَة جِهَات : ناحية.
(٢) جَفْن : جمع جُفُون وأَجْفَان : غطاء العين من أعلاها وأسفلها.
(٣) هُدْبٌ جمع أَهْدَاب : شعر أشْفَار الْعَيْن.
(٤) سِيَاجُ جمع سِيَاجَات : سورٌ من أسلاك أو حجارة أو غيرها يُحِيْط بمَنْزِلٍ أو غيره.

البَعُوْضَ وَالْغُبَارَ الَّتِي تَدْخُلُ الْعَيْنَ ، فَتُسَبِّبُ لَهَا الأَلَمَ وَالْمَرَضَ سَلَّطَ عَلَيْهَا مَاءً جَارِياً يَغْسِلُ مَا يَدْخُلُ فِيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ.

وَالْعَيْنُ عُرْضَةٌ لكَثِيْرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ ، كَالرَّمَدِ وَقِصَرِ النَّظَرِ ، قَدْ عَمَّ هٰذَا الْمَرَضُ الأَخِيْرُ فِيْ هٰذَا الزَّمَانِ ، فَلَجَأَ النَّاسُ حَتَّىٰ لأَطْفَالُ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ مِنْظَرَةٍ ، وَلِلاِجْتِنَابِ عَنْ هٰذِهِ الأَمْرَاضِ حْسُنُ الاِعْتِزَالُ عَنِ الْغُبَارِ وَالأَتْرِبَةِ ، وَيَحْسُنُ التَّجَوُّلُ فِي لأَمَاكِنِ الْفَسِيْحَةِ ، وَكَثْرَةُ غَسْلِ الْوَجْهِ بِالْمَاءِ الصَّافِيْ ، فَإِنَّهُ جْلُوْ الْعَيْنَ ، وَيُنَقِّيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ وَالْقَذَىٰ[1] ، وَلِذٰلِكَ كَانَ وُضُوْءُ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ ـ خُصُوصاً فِي الصَّبَاحِ عِنْدَ الْقِيَامِ ـ افِعاً جِدّاً.

وَمُوَاصَلَةُ الْقِرَاءَةِ لَيْلاً فِي النُّوْرِ الضَّعِيْفِ تُؤَثِّرُ فِي النَّظَرِ أْثِيْراً كَبِيْراً ، وَتَضُرُّ بِهِ ضَرَراً عَظِيْماً ، فَعَلىٰ مَنْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُوْرَةُ ىٰ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مِنَ الْمَصَابِيْحِ مَا كَانَ ذَا نُوْرٍ رَائِقٍ[2] مُعْتَدِلٍ يْرِ سَاطِعٍ وَلاَ ضَعِيْفٍ.

وَالْعَيْنُ جَوْهَرَةٌ غَالِيَةٌ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُشْتَرَىٰ بِالْمَالِ ، وَبِهَا يَتَمَتَّعُ

---

(1) قَذىً ج أَقْذَاءٌ وقُذِيٌّ: ما يتكون في العين من وسخ أبيض ، وما يتجمع فيها من تبنة وغيرها.

(2) رائق: طيب.

الإِنْسَانُ بِجَمَالِ الطَّبِيْعَةِ ، وَيَقْضِيْ بِهَا حَاجَاتٍ فِيْ نَفْسِهِ ، وَيَكُوْنُ عُضْواً عَامِلاً مُفِيْداً مِنْ أَعْضَاءِ الأُسْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَإِذَا فَقَدَ الإِنْسَانُ بَصَرَهُ حُرِمَ شَيْئاً كَثِيْراً مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا ، فَكَأَنَّمَا أَظْلَمَ لَهُ الْعَالَمُ ، وَكَانَ كَلاًّ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، وَرُبَّمَا كَانَ عِيَالاً عَلَىٰ عَصاً حَقِيْرَةٍ لا يَمْشِيْ بِغَيْرِهَا .

* * *

(٤٣)

العين

(٢)

وَلِذٰلِكَ كَانَتِ الْعَيْنُ ثَمِيْنَةً غَالِيَةً وَنِعْمَةً جَلِيْلَةً ، حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيْ بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُما الجَنَّـةَ ، يُرِيْـدُ عَيْنَـيْهِ.

وَلَا يَـلْـزَمُ أَنْ يَكُوْنَ الإِنْسَانُ إِذَا فَقَدَ بَصَرَهُ عَاطِلاً ضَائِعاً ، فَلَقَدْ فَاقَ كَثِيْرٌ مِنَ الْعُمْيَانِ كَثِيْراً مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ فِي الْعِلْمِ ، وَأَقَرَّتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِالفَضْلِ ، كَالْمُفَسِّرِ قَتَادَةَ ، وَالْمُحَدِّثِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ ، وَالْفَقِيْهِ زُبَيْرِ الْبَصْرِيِّ؛ وَالنَّحْوِيِّ أَبِي جَعْفَرٍ ، وَالأَدِيْبِ أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيْ ، وَالشَّاعِرِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَإِمَامِ التَّجْوِيْدِ الإِمَامِ الشَّاطِبِيِّ.

وَمِنْ حَقِّ هٰذِهِ النِّعْمَةِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ وَأَنْ يَضِنَّ[1] بِهَا عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ، وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ» .

وَمِنْ حَقِّها أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا فِيْ طَاعَةِ اللهِ ، وَأَنْ يُرِيْقَ دَمْعَهَا فِيْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَـرَيْنِ: قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَأَمَّا الأَثَـرَانِ: فَـأَثَـرٌ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ، وَأَثَـرٌ فِيْ فَرِيْضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ» .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُوْلُ فِيْ دُعَائِهِ: اللهُمَّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ ، وَمِنْ عَيْنٍ لاَ تَدْمَعُ [2] ، وَمِنْ دُعَاءٍ لاَ يُسْمَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا .



(١) ضَنَّ يَضِنُّ ضَنّاً: بالشيء عليه: بَخِلَ بُخْلاً شديداً.
(٢) دَمَعَ يَدْمَعُ دَمْعاً: دَمَعَتِ العَيْنُ: سَال ماؤُها.

(٤٤)

أَدَبُ الْمُعَاشَرَة

أُسْلُكْ مَعَ النَّاسِ الأَدَبْ ... تَرَ مِنَ الدَّهْرِ الْعَجَبْ

وَلاَ تُطَاوِلْ بِنَشَبْ(١) ... وَلاَ تُفَاخِرْ بِنَسَبْ

الْعِزُّ فِي الأَمَانَةْ ... وَالْكَيْسُ فِي الْفَطَانَةْ(٢)

لاَ تُغْضِبِ الْجَلِيْسَا ... لاَ تُوْحِشِ الأَنِيْسَا

لاَ تُكْثِرِ الْعِتَابَا ... تنفِّرِ الأَصْحَابَا

فَكَثْرَةُ الْمُعَاتَبَةْ(٣) ... تَدْعُوْ إِلَىٰ الْمُجَانَبَةْ(٤)

وَإِنْ حَلَلْتَ مَجْلِسا ... بَيْنَ سَرَاةٍ(٥) رُؤَسَا

---

(١) نَشَب: مالٌ أَصيل مِن نقود وماشية.

(٢) فَطَانَة: قوّة استعداد الذهن لإدراك ما يراد إليه.

(٣) المعاتبة: الملاءمة برفق.

(٤) المُجَانَبة: الإبعاد عن الشيء.

(٥) سَرِيّ ج أسرياء وسَرَاة: شريف ، كريم الحسب.

فَـاقْصِـدْ رِضَـا الْجَمَـاعَـة　　وَكُـنْ غُـلاَمَ الطَّـاعَـة
وَقُـلْ مِـنَ الْكَـلاَمِ　　مَـا رَاقَ[1] بِـالْمَقَـامِ
كَـرَائِـقِ الأَشْعَـارِ　　وَطَيِّـبِ الأَخْبَـارِ
وَاتْـرُكْ كَـلاَمَ السَّفَلَـة[2]　　وَالنُّكَـتَ[3] الْمُبْتَـذَلَـة
وَلاَ تَكُـنْ مِلْحَـاحَـا　　وَاجْتَنِـبِ الْمِـزَاحَـا
فَكَثْـرَةُ الْمُجُـوْنِ　　نَـوْعٌ مِـنَ الْجُنُـونِ



(١) رَاقَ يَرُوْق رَوْقاً بالشيء: أعجبه.
(٢) سَافِل ج سَفَلَة: سَيِّء الخلق، والسَّفَلَة تقال لأراذل الناس أيضاً.
(٣) نُكْتَة ج نُكَت ونِكَاتٌ: جملة لطيفة تؤثِّر في النفس انبساطاً.

(٤٥)

عِيْدُ الأَضْحَىٰ

كَانَ الْيَوْمُ الأَخِيْرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَكَانَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُوْنَ مِنَ الشَّهْرِ ، رَأَىٰ وَالِدِي الْهِلاَلَ ، وَكَانَ دَقِيْقاً جِدّاً ، وَمَا رَأَيْتُهُ إِلاَّ بِاجْتِهَادٍ وَبَحْثٍ ، وَرَأَيْتُ وَالِدِيْ يَقُوْلُ وَيَدْعُوْ ، قُلْتُ لَهُ: مَاذَا تَقُوْلُ فِيْ دُعَائِكَ يا أَبِيْ؟ قَالَ وَالِدِيْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَىٰ الْهِلاَلَ قَالَ:

«اللهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيْمَانِ وَالسَّلاَمَةِ وَالإِسْلاَمِ ، رَبِّيْ وَرَبُّكَ اللهُ ، هِلاَلَ رُشْدٍ وَخَيْرٍ».

فَتَعَلَّمْتُهُ مِنْ وَالِدِيْ وَحَفِظْتُهُ.

وَظَنَنْتُ أَنَّ الْعِيْدَ غَداً ، فَأَخْبَرَنِيْ أَبِيْ أَنَّ الْعِيْدَ بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ ، فَإِنَّ عِيْدَ الأَضْحَىٰ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ مِنَ الشَّهْرِ عُطِّلَتِ الْمَدْرَسَةُ ، وَأَخْبَرَنِي

الْمُعَلِّمُ أَنَّ الْحُجَّاجَ يَذْهَبُوْنَ الْيَوْمَ إِلَىٰ مِنَىٰ[1] حَيْثُ يَبِيْتُوْنَ، وَهٰذَا الْيَوْمُ يُسَمَّىٰ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ[2].

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ، وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ، يَذْهَبُ الْحُجَّاجُ إِلَىٰ عَرَفَاتٍ، وَيَظَلُّوْنَ هُنَالِكَ يَدْعُوْنَ وَيَذْكُرُوْنَ اللهَ، وَيَذْهَبُوْنَ مِنْهَا إِلَىٰ الْمُزْدَلِفَةِ[3] وَيَبِيْتُوْنَ هُنَالِكَ، وَفِيْ صَبَاحِ الْيَوْمِ الْعَاشِرِ يَرْجِعُوْنَ إِلىٰ مِنَىٰ وَيَنْحَرُوْنَ[4]، وَذٰلِكَ يَوْمُ النَّحْرِ[5] وَهُوَ يَوْمُ الْعِيْدِ.

وَكَانَ أَبِي اشْتَرَىٰ بَقَرَةً سَمِيْنَةً لِلذَّبْحِ، قَالَ: فِيْهَا سَبْعَةُ سِهَامٍ: اثْنَانِ لِيْ وَلأُمِّكَ، وَوَاحِدٌ لَكَ، وَأَرْبَعَةٌ لأَخَوَيْكَ وَأُخْتَيْكَ.

وَكَانَ أَبِيْ يَعْلِفُهَا[6] وَيَسْقِيْهَا بِنَفْسِهِ، وَقَالَ: فِيْ ذٰلِكَ فَضِيْلَةٌ وَأَجْرٌ.

وَالْيَوْمِ الْعَاشِرِ غَيَّرْنَا اللِّبَاسَ، وَكَانَ أَبِيْ قَدْ أَعَدَّ لِيْ لِبَاساً

---

(١) مِنًى: بلدة قرب مكة ينزلها الحجاج أيام التشريق.

(٢) يوم التَّرْوِيَة: أي الثامنُ مِن ذي الحجة.

(٣) المُزْدَلِفَة: موضع بين عرفات ومِنىً.

(٤) نَحَرَ يَنْحَرُ نَحراً: ذَبَحَ.

(٥) النَّحرُ: عَاشر ذي الحجة.

(٦) عَلَفَ يَعْلِفُ عَلْفاً الحَيْوَانَ: أَطْعَمَهُ.

جدِيْداً ، أَمَّا الْحِـذَاءُ ، فَكَانَ حِـذَاءَ الْعِيْدِ ، وَكَانَ نَظِيْفـاً لَـمْ يَتَوَسَّخْ ، كَأَنَّهُ جَدِيْدٌ ، لأَنِّيْ مَا كُنْتُ أَلْبَسُهُ إِلاَّ قَلِيْلاً ، وَتَطَيَّبَ أَبِيْ وَغَيَّرَ اللِّبَاسَ ، وَخَرَجْنَا مَعَ الْجَمَاعَةِ إِلَىٰ الْمُصَلَّىٰ ، فَكَبَّرَ[1] وَهَلَّلَ[2] جَهْراً[3] ، وَصَلَّىٰ الإِمَامُ بِالنَّاسِ وَخَطَبَ ، وَذَكَرَ أَحْكَامَ الأُضْحِيَّةِ ، وَرَجَعْنَا مِنَ الْمُصَلَّىٰ بِطَرِيْقٍ آخَرَ ، وَذَبَحَ أَبِي الْبَقَرَةَ ، وَسَمَّىٰ اللهَ وَكَبَّرَ .

وَوَزَّعَتْ أمِّي اللَّحْمَ عَلَىٰ الْمَسَاكِيْنِ وَالأَقَارِبِ وَالأَصْدِقَاءِ ، وَطَبَخَتْ لَنَا أَيْضاً ، فَمَا تَغَدَّيْنَا إِلاَّ بِلَحْمِ أُضْحِيَّتِنَا[4] .

وَتَوَفَّرَ كَثِيْرٌ مِنَ اللَّحْمِ ، فَاحْتَفَظَتْ بِهِ أُمِّيْ وَأَيْبَسَتْهُ ، وَلَمْ نَـزَلْ نَأْكُلُ مِنْ هَذَا الْقَدِيْدِ[5] مُدَّةً طَوِيْلَةً .

وَكَانَتْ فِيْ أَيَّامِ الْعِيْدِ الثَّلاَثَةِ مَآدِبُ[6] كَثِيْرَةٌ ، وَكَانَتْ أَيَّامَ أَكْلٍ وَشُرْبٍ ، وَقَدْ دَعَا أَبِيْ لَيْلَةَ يَوْمِ الْعِيْدِ جَمَاعَةً مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَجِيْرَانِهِ ، وَصَنَعَتْ أُمِّيْ طَعَاماً مُلَوَّناً ، فَأَكْثَرَتْ وَأَطَابَتْ .

---

(١) كَبَّرَ يُكَبِّرُ تَكْبِيْراً: قال: اللهُ أكبر.
(٢) هَلَّلَ يُهَلِّلُ تَهْلِيلاً: قال: لا إله إلا الله.
(٣) جَهْراً: إعلاناً بصوت عالٍ.
(٤) أُضْحِيَّة جمع أَضَاحٍ: شاة ونحوها يضحّي بها في عيد الأضحى.
(٥) قَدِيْد: لَحْمٌ مقطَّعٌ مُمَلَّح ، مُجَفَّف في الشمس.
(٦) مَأْدبَة جمع مَآدِبُ: الطعام الَّذي يصنع لدعوة.

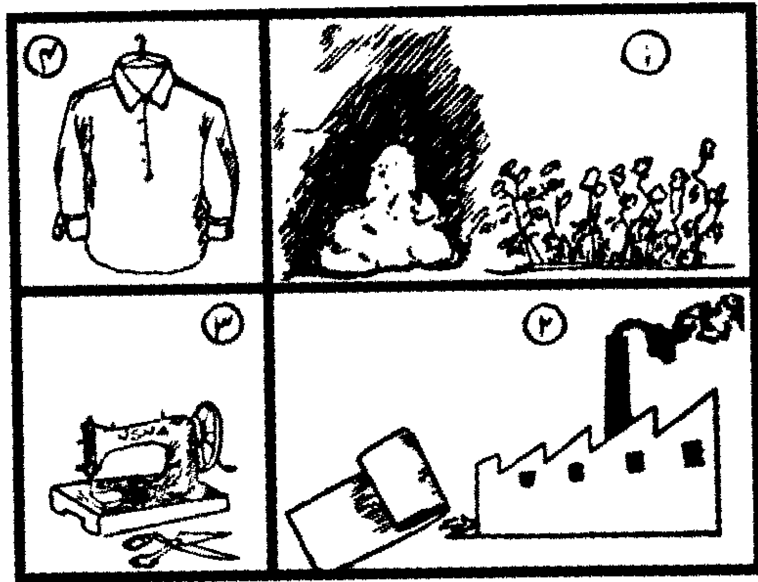
وَالْيَوْم الثَّانِي كُنَّا ضُيُوْفاً عِنْدَ جَارِنَا الْكَرِيْمِ: السَّيِّدِ حُسَيْنِ الطَّبِيْبِ ، وَكَانَتْ مَأْدُبَةً عَظِيْمَةً ، وَلَمْ آكُلْ مِنَ اللَّحْمِ فِيْ طُوْلِ الشَّهْرِ مَا أَكَلْتُ فِيْ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ وَلَمْ يَضُرَّ شَيئاً.

وَكُنْتُ أَسْمَعُ الإِمَامَ مِنْ فَجْرِ يَوْمِ عَرَفَةَ إِلَىٰ عَصْرِ الْيَوْمِ الأَخِيْرِ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ يَعْنِيْ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يُكَبِّرُ وَيُهَلِّلُ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوْبَةٍ.

* * *

(٤٦)

تَـارِيْخُ الْـقَمِـيْصِ



إِنَّكَ لَبِسْتَ قَمِيْصاً جَدِيْداً ، فَأَبْلِ وَأَخْلِقْ! وَلٰكِنْ هَلْ تَعْرِفُ مِنْ تَارِيْخِهِ شَيئاً ، هَلْ تَعْرِفُ كَمْ عَمِلَ فِيْهِ مِنَ الأَيْدِيْ ، وَكَمِ اشْتَغَلَ بِهِ النَّاسُ ، وَكَمْ تَعِبَ فِيْهِ الْعَامِلُوْنَ ، وَكَيْفَ وَصَلَ إِلَيْكَ؟

كَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ أَنَّ الزَّرَّاعَ زَرَعَ الْقُطْنَ[١] وَتَحَمَّلَ فِيْ زِرَاعَتِهِ

---

(١) القُطْن: جِنْس نباتات زراعية ليفية ثَمْرتها مادَّة بَيْضَاء ناعمة تُـغْـزَلُ وتُصْنَعَ منها الثياب ونحوها.

عَنَاءً[1] شَدِيْداً ، فَإِنَّ زِرَاعَةَ الْقُطْنِ فِيْهَا تَعَبٌ عَظِيْمٌ ، وَشُغْلٌ طَوِيْلٌ ، حَرَثَ الأَرْضَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، أَوْ أَكْثَرَ ، وَشَقَّ خُطُوْطاً ، وَمَلأَهَا بِالْمَاءِ ، وَتَرَكَهَا حَتَّىٰ جَفَّتْ ، وَحَفَرَ فِيْ جَنْبِهَا حُفَراً ، ثُمَّ بَذَرَ[2] فِيْهَا بُذُوْراً مِنَ الْقُطْنِ قَدْ نَقَعَهَا بِالْمَاءِ لَيْلَةً ، وَلَمَّا نَجَمَ[3] النَّبَاتُ عَزَقَ[4] الْفَلاَّحُ الْخُطُوْطَ ، فَجَعَلَ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا ، وَقَلَعَ الْحَشَائِشَ[5] الَّتِي تَضُرُّ بِالْقُطْنِ ، وَأَرْوَاهَا[6] مِرَاراً ، وَلَمْ يَزَلِ الْفَلاَّحُ يَخْدُمُ الْحَقْلَ ، وَيَتْعَبُ وَلاَ يَسْتَرِيْحُ شُهُوْراً ، حَتَّىٰ ظَهَرَ فِيْهَا الْقُطْنُ ، فَانْبَثَّ الأَوْلاَدُ مِنَ الْبَنِيْنَ وَالْبَنَاتِ فِي الْحَقْلِ ، وَجَنَوُا الْقُطْنَ.

وَلَمَّا جُمِعَ الْقُطْنُ أُرْسِلَ إِلَىٰ الْحَلاَّجِ[7] ، فَحَلَجَهُ[8] ، ثُمَّ نُقِلُ إِلَىٰ بَعْضِ الْمَصَانِعِ فَغُزِلَ ، ثُمَّ أَخَذَهُ الْحَائِكُ ، وَمَدَّهُ خُيُوطاً

---

(١) عناءً: تَعْباً.
(٢) بَذَرَ يَبْذُر بَذْراً : الحبَّ: ألقاه في الأرض متفرقاً للزراعة.
(٣) نَجَمَ يَنْجُمُ نَجْماً وَنُجُوماً: طَلَعَ وظَهَرَ.
(٤) عَـزَق : شقّ.
(٥) حَشِيْش جمع حَشَائِش واحدته حشيشة: العشب الَّذي يكسو الحدائق ونحوها.
(٦) أَرْوَىٰ يُرْوِي إِرْواءً: سَقَىٰ.
(٧) الحلاَّج: الَّذي يخلِّص القطن من بذره.
(٨) حَلَجَ يَحْلُجُ حَلْجاً وحِلاَجَةً: القطْنَ: خَلَّصَه من بذره.

ُتقَارِبَـةً ، وَلَمْ يَزَلْ يَشْتَغِلُ وَيَتْعُبُ أَيَّاماً ، حَتَّىٰ نَسَجَهُ ثَوْباً نَاعِماً
َتِيْنَاً ، وَاشْتَرَىٰ تَاجِرٌ ذٰلِكَ الثَّوْبَ وَوَضَعَهُ فِيْ دُكَّانِهِ ، فَذَهَبَ
لَيْهِ أَبُوْكَ بِمَالِهِ الَّذِيْ اكْتَسَبَهُ بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ[١] وَتَعِبَ فِيْهِ أَيَّاماً ،
أَنْتَ مُسْتَرِيْحٌ فِي الْبَيْتِ تَأْكُلُ وَتَـنَـامُ ، وَذَهَبَ ذٰلِكَ الثَّوْبُ إِلَىٰ
خَيَّاطٍ فَفَصَّلَ مِنْهُ لَكَ قَمِيْصاً ، ثُمَّ خَاطَهُ لَيْلَةَ الْعِيْدِ وَهُوَ سَاهِرٌ ،
أَنْتَ فِيْ فِرَاشِكَ نَائِمٌ.

وَجَاءَ إِلَيْكَ الْقَمِيْصُ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ مِنْكَ وَشُغْلٍ ، أَفَلَا يَجِبُ
َلَيْكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا لَبِسْتَهُ:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ كَسَوْتَنِيْهِ ، وَأَلْبَسْتَنِيْهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّيْ
لَا قُوَّةٍ ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
َرِّهِ ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ» .



---

(١) بِعَرَقِ الْجَبِيْنِ: أي بالجهدِ والكدِّ.

(٤٧)

الأَسَـــدُ

الأَسَدُ مَلِكُ الْغَابَةِ ، وَسَيِّدُ السِّبَاعِ ، وَهَيْئَتُهُ تَدُلَّ عَلَىٰ ذٰلِكَ ، فَلَهُ مَنْظَرٌ مَهِيْبٌ[١] ، وَزَئِيْرٌ[٢] تَدْوِيْ[٣] لَهُ الْغَابَاتُ ، وَيَطِيْرُ لَهُ قَلْبُ الشُّجَاعِ ؛ قَوِيُّ الْبَأْسِ ، كَبِيْرُ الْجِسْمِ ، يُحِيْطُ بِرَأْسِهِ شَعْرٌ كَبِيْرٌ يَكَادُ يَحْجُبُ رُكْبَتَيْهِ[٤] ، إِذَا غَضِبَ تَجَعَّدَتْ[٥] جَبْهَتُهُ وَخَدَّاهُ ، وَكَشَّرَ[٦] عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَبْرَقَتْ عَيْنَاهُ ، وَاخْتَلَجَ[٧]

---

(١) مَهِيْبٌ : مَن يخافه النَّاسُ.

(٢) زَئِير : صَوْتُ الأَسد.

(٣) دَوِي يَدْوَى دَوًى : المكانُ : ضَجَّ بِهُتَافَاتٍ.

(٤) رُكْبَة جمع رُكَب : مَوْصِلُ أسفل الفخذ بأعلى الساق.

(٥) تَجَعَّدَ يَتَجَعَّدُ تجعُّداً : الجَبْهَةُ أو الشعرُ ، أو الوجهُ ، أو الخدُّ : اجتَمَعَ وَتَقَبَّضَ والتوى.

(٦) كَشَّرَ يُكَشِّر تَكْشِيْراً : السبعُ : هَرَّ عند الوثوب.

(٧) اخْتَلَجَ يَخْتَلِجُ : تحَرَّك واضْطَرَبَ.

حَاجِبَاهُ ، وَوَقَفَ شَعْرُ بَدَنِهِ ، وَضَرَبَ بِذَنَبِهِ جَنْبَيْهِ ، وَأَطْبَقَ[1] عَيْنَيْهِ ، وَمَالَ إِلَىٰ الأَرْضِ ، وَوَثَبَ[2] عَلَىٰ فَرِيْسَتِهِ كَالصَّاعِقَةِ ، حَتَّىٰ إِذَا ظَفِرَ بِهَا أَخَذَ فِيْ مُلَاعَبَتِهَا ، ثُمَّ مَزَّقَهَا بِأَنْيَابِهِ تَمْزِيْقاً.

وَإِذَا كَانَ الأَسَدُ مُقَيَّداً دَلَّتْ هَيْئَتُهُ عَلَىٰ الْهُدُوْءِ ، فَإِذَا أُفْلِتَ وَهُيِّجَ انْدَفَعَ مِنْ عَرِيْنِهِ[3] ، وَهُوَ أَكْثَرُ شَجَاعَةً فِي اللَّيْلِ مِنْهُ فِي النَّهَارِ ، وَيَمُرُّ بِالإِنْسَانِ ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ ضَارِياً أَوْ هَاجَهُ إِنْسَانٌ.

وَيَهْجُمُ عَلَىٰ الْحَيْوَانَاتِ كَالْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَغَيْرِهَا ، وَيَصِيْدُ الظَّبْيَ وَيَأْكُلُهُ بِرَغْبَةٍ ، وَتَدْفَعُهُ الْجَرَاءَةُ إِلَىٰ اخْتِطَافِ[4] الإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ.

وَأُنْثَىٰ الأَسَدِ تُعْرَفُ بِاللَّبُوْءَةِ[5] ، وَهِيَ أَصْغَرُ جُثَّةً ، وَأَخَفُّ حَرَكَةً ، وَأَشَدُّ غَضَباً مِنْهُ ، وَجَرْوُهَا يُعْرَفُ بِالشِّبْلِ[6] ، وَيَبْدَأُ فِي الافْتِرَاسِ ، وَيَهْتَمُّ بِقُوَّتِهِ إِذَا بَلَغَ الثَّانِيَةَ مِنْ عُمُرِه.

---

(١) أَطْبَقَ يُطْبِقُ: عَيْنَيْه أو شَفَتَيْه: أَغْلَقَهما.
(٢) وَثَبَ يَثِبُ وَثْباً وَوُثُوْباً: قفزَ.
(٣) عَرِيْن جمع عُـرُن: مأوى الأسد.
(٤) اختطاف الشيء: أي انتزاعه بسرعةٍ.
(٥) اللَّبُوْءَة جمع لُبُوء ولَبُؤات: أُنثى الأسد.
(٦) الشِّبْلُ جمع الأشبال: وَلَدُ الأَسد.

وَمُعَـدَّل طُـوْلِ الأَسَـدِ ثَـلاَثُ أَذْرُع ، وَعُلُـوُّهُ ذِرَاعٌ وَرُبْـعٌ ، وَمُعَدَّلُ مَا يَعِيْشُ خَمْسٌ وَعِشْرُوْنَ سَنَةً ، وَقَدْ يَبْلُغُ فِيْ قَفَصِهِ مِئَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

* * *

(٤٨)

غُرُوْرُ الدُّنْيَا

تقُولُ لَيْسَ الْمَاجِدُ[1] إلاَّ الْقَنُوْعُ الزَّاهِدُ

فَمَا أَعَزَّ مَنْ قَنِعْ وَمَا أَذَلَّ مَنْ طَمِعْ

دُنْيَاكُمُ حَبِيْبَة بِحُسْنِهَا وَالطِّيْبَة

لٰكِنَّهَا غَدَّارَةْ[2] خَدَّاعَةٌ غَرَّارَةْ[3]

لَيْسَ لَهَا حَبِيْبُ زَوَالُهَا قَرِيْبُ

مَلُوْلَةٌ خَوَّانَةْ لَيْسَ لَهَا أَمَانَةْ

تُفَرِّقُ الأَحْبَابَا تُشَتِّتُ الأَتْرَابَا

حَرْبٌ لِمَنْ سَالَمَهَا[4] تَمَلُّ[5] مَنْ لاَزَمَهَا

---

(١) مَاجِد جمع أَمْاجد: شريف خيِّر.

(٢) غَدَّارة: خَائنة.

(٣) غرَّارَة: خَدَّاعة.

(٤) سَالَمَ يُسَالِمُ مُسَالَمَةً: صَالَحَ.

(٥) مَلَّ يَمَلُّ مَلَلاً ومَلاَلاً ومَلاَلَةً: سَئِمَ وَضَجِرَ.

عَـــزِيْـــزُهَـــا ذَلِيْـــلُ　　كَثِيْـــرُهَـــا قَلِيْـــلُ

وصَـــالُهَـــا عَنَـــاءُ　　صُـــدُوْدُهَـــا بَـــلاَءُ

يَحْظَـــىٰ بِهَـــا الْجُهَّـــالُ　　وَيَنْعَـــمُ الأَنْـــذَالُ[1]

يَشْقَـــىٰ بِهَـــا اللَّبِيْـــبُ[2]　　وَيَتْعَـــبُ الأَدِيْـــبُ

(أبو العتاهية)

* * *

(١) نَـذْل جمع أَنْذَال: خَسِيْس سَاقِط في دينٍ أو حَسَبٍ.

(٢) اللَّبِيْبُ جمع الأَلبَّاءُ: العاقل الذكيُّ.

(٤٩)

رِسَالَـةٌ إِلَـىٰ رَسُـوْل الله ﷺ

إِذَا جَاءَكَ قَرِيْبٌ أَوْ صَدِيْقٌ ، وَقَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ إِلَىٰ الْوَطَنِ ، وَسَأُقَابِلُ أَبَاكَ ، فَهَلْ تُوْصِيْ بِشَيْءٍ؟ وَهَلْ لَكَ رِسَالَةٌ إِلَيْهِ أَحْمِلُهَا مِنْكَ ، وَأُبَلِّغُهَا إِلَيْهِ؟ فَلاَ تَشُكُّ أَنَّهُ سَيَجْتَمِعُ بِأَبِيْكَ ، وَرُبَّمَا يَسْأَلُ أَبُوْكَ عَنْكَ خَبَراً سَارّاً ، وَبُشْرَىٰ صِحَّتِكَ. فَتَقُوْلُ: تقْرَأ عَلَىٰ وَالِدِيْ مِنِّيْ السَّلاَمَ ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ ابْنَكَ بِخَيْرٍ ، وَكَمَا تُحِبُّ مِنْ صِحَّةٍ وَسُرُوْرٍ.

كَذٰلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يَعْتَقِدُوْنَ أَنَّ الْمَوْتَ جِسْرٌ[1] إِلَىٰ الآخِرَةِ ، وَكُلُّ مَنْ عَبَرَ[2] هٰذَا الْجِسْرَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَصَلَ إِلَىٰ

---

(١) جَسْر جمع جُسُوْر: القنطرة ونحوها مما يعبر عليه ، وما يربط بين طرفين ، وسيلة اتصال وتفاهم.

(٢) عَـبَـر يَعْـبُـرُ عُـبُوراً وعَـبْـراً ـ الـنَّهْـرَ والطريقَ أو الجِسْرَ: قَطَعَه من جانبٍ إلى جانبٍ.

الآخِرَةِ ، وَاجْتَمَعَ هُنَالِكَ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَتَشَرَّفَ بِزِيَارَتِهِ ، وَلاَ بُدَّ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ سَائِلٌ عَنْ أُمَّتِهِ.

وَيُمْكِنُ أَلاَّ يَصِلَ قَرِيْبُكَ أَوْ صَدِيْقُكَ إِلَىٰ الْوَطَنِ لِمَانِعٍ أَوْ حَادِثَةٍ ، أَوْ يَصِلَ إِلَىٰ الْوَطَنِ ، وَلاَ يَجْتَمِعَ بِأَبِيْكَ ، وَلٰكِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ مَا كَانُوْا يَشُكُّوْنَ فِيْ وُصُوْلِ الْمَيِّتِ إِلَىٰ عَالم الآخِرَةِ ، وَاجْتِمَاعِ الشَّهِيْدِ بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

زَحَفَ[1] الْمُسْلِمُوْنَ إِلَىٰ الشَّام ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَهُمْ: «لَتُفْتَحُنَّ كُنُوْزَ كِسْرَىٰ[2] وَقَيْصَرَ[3]» وَقَدْ وَعَدَهُمَا اللهُ بِالنَّصْرِ ، وَقَالَ: «وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُوْنَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُوْنَ» وَكَانُوْا وَاثِقِيْنَ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَكَذٰلِكَ كَانَ ، فَقَدْ فَتَحُوْا مَدِيْنَةً بَعْدَ مَدِيْنَةٍ ، وَهَزَمُوَا جُنْداً بَعْدَ جُنْدٍ.

وَجَاءَ رَجُل يَوْمَ الْيَرْمُوْكِ[4] إِلَىٰ أَبِيْ عُبَيْدَةَ ـ رضي الله عَنْهُ ،

---

(١) زَحَفَ يَزْحَفُ زَحْفاً: تَقَدَّمَ في ثقلٍ.

(٢) كِسْرَىٰ: لقبُ ملوكِ الفُرس.

(٣) قَيْصَر: لقبُ ملوكِ الرُّوم.

(٤) اليَرْمُوْك: من روافد الأردن ، ينبع في هضبة حوران ويجري في حدود سورية ، ويصبُّ في الأردن ، عنده انتصر سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه على البيزنطيين سنة ١٥ هـ.

قَائِدِ الْمُسْلِمِيْنَ ـ فقَالَ: إِنَّنِيْ قَدْ تَهَيَّأْتُ لأَمْرِيْ أَيْ لِلشَّهَادَةِ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ أَبُوْ عُبَيْدَةَ: نَعْم! تُقْرِئُهُ عَنِّيْ السَّلَامَ ، وَتَقُوْلُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ ﷺ! إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير ، ج ٧ ، ص ١٢ .

(٥٠)

حَـادِثَـــةٌ

زَارَنَا مَرَّةً ضَيْفٌ كَرِيْمٌ ، وَبَاتَ عِنْدَنَا لَيْلَةً ، وَفِي الصَّبَاحِ قُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَحِمُّ[1] يَاسَيِّدِيْ؟

وَكَانَ يَوْمُ جُمُعَةٍ ، قَالَ: نَعَمْ! قُلْتُ: هٰذَا مُغْتَسَلٌ[2] ، قَالَ: بَلْ أَسْتَحِمُّ فِي النَّهْرِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ يَعْرِفُ السِّبَاحَةَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُ أَنْ يَسْبَحَ مِنْ مُـدَّةٍ طَـوِيْلَـةٍ ، وَسَمِعْـتُ أَنَّ الإِنْسَـانَ لَا يَنْسَـىٰ السِّبَـاحَـةَ إِذَا تَعَلَّمَهَا ، إِلَّا أَنَّـهُ يَتْعَبُ سَرِيْعاً.

وَكَانَ النَّهْرُ فَائِضاً[3] وَكَانَ يَجْرِيْ بِقُوَّةٍ ، فَخَاضَ[4] الشَّيْخُ

---

(١) اسْتَحَمَّ يَسْتَحِمُّ: اغْتَسَلَ.

(٢) مُغْتَسَل: مكان الغسل.

(٣) فائضاً: سَائلاً.

(٤) خَاضَ يَخُوْضُ خَوْضاً : الماءَ: دَخَلَهُ ومَشَىٰ فيه.

النَّهْرَ ، وَبَدَأَ يَسْبَحُ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ كَلَّتْ[1] عَضُدُهُ ، وَخَارَتْ[2] قُوَاهُ وَأَعْيَا ، وَدَفَعَهُ الْمَاءُ بِقُوَّةٍ ، فَجَعَلَ يَجْرِيْ فِيْ تَيَّارِهِ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئاً ، وَأَيْقَنَ بِالشَّرِّ.

فَجَعَلَ يَصْرخُ وَيَسْتَغِيْثُ ، وَيَقُوْلُ: يَا رَجُلاً! خُذْ بِيَدِيْ ، وَجَعَلَ يَذْكُرُ ، وَيَقُوْلُ: اللهُ! اللهُ! كَأَنَّهُ فِيْ آخِرِ عَهْدِهِ بِالدُّنْيَا ، وَجَعَلَ يَغْطِسُ وَيَطْفُوْ.

فَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْنَا ، وَخِفْنَا عَلَيْهِ الْغَرَقَ ، وَكَانَ أَحَدُ أَقَارِبِنَا مِمَّنْ يُحْسِنُوْنَ السِّبَاحَةَ يَغْتَسِلُ فِي النَّهْرِ فَقُلْنَا: دُوْنَكَ الأُسْتَاذَ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ، وَلَمَّا رَأَىٰ الشَّيْخُ مُنْجِداً تَشَجَّعَ قَلِيْلاً ، وَأَرَادَ أَنْ يُمْسِكَهُ.

وَلٰكِنْ كَانَ الرَّجُلُ عَاقِلاً مُجَرِّباً ، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْغَرِيْقَ يَرْكَبُ مَنْ يُنْجِدُ وَيَأْخُذُ بِتَلَابِيْبِهِ[3]، وَيَغْرَقَانِ جَمِيْعاً ، فَلَمْ يُمْكِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ غَطَسَ[4] وَدَفَعَهُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَىٰ

---

(١) كَلَّ يَكَلُّ كُلُوْلاً وَكَلَالَةً: العَضُدُ: ضَعُفَتْ.

(٢) خَارَ يَخُوْرُ خُؤوراً: القوةُ ونحوها: انكَسَرَتْ وَضَعُفَتْ. يُقال خَارَتْ قواه: أي مَرِضَ أوْ ضَعُفَ جِسْمَانِيّاً.

(٣) تَلَابِيْب: طَوْق الثَّوْب «أَخَذَ بِتَلَابِيْبِهِ» أي: أَمْسَكَهُ مِنْ أَعْلَىٰ ثَوْبِهِ.

(٤) غَطَسَ يَغْطِسُ غَطْساً في الماء ونحوه: أي انْغَمَسَ فيه.

الشَّاطِىءِ ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّيْخُ يَجْتَهِدُ أَنْ يُمْسِكَهُ ، وَالرَّجُلُ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ الأَمَامِ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ كَالْمُغْمَىٰ عَلَيْهِ لاَ يَعْقِلُ[1] شَيْئاً ، وَكَانَ عَلَىٰ الشَّاطِىءِ رَجُلٌ يَصِيْدُ السَّمَكَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ: مُدَّ عُوْدَكَ[2] لِيُمْسِكَهُ الشَّيْخُ ، فَمَدَّ الصَّيَّادُ عُوْدَهُ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ وَلاَ يُمْسِكُهُ ، وَبَعْدَ حِيْنٍ أَمْسَكَ بِالْعُوْدِ ، وَوَصَلَ إِلَىٰ الشَّاطِىءِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ كَثِيْراً مِنَ الْمَاءِ ، فَنَكَّسُوْهُ[3] حَتَّىٰ قَاءَ[4] وَأَفَاقَ[5] ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ الشُّعُوْرُ وَالْقُوَّةُ.

وَكَانَ عَلَىٰ شَاطِىءٍ آخَرَ مِنَ النَّهْرِ ، فَصَنَعُوْا لَهُ مَرْكَباً مِنَ الْجِرَارِ ، وَرَكِبَهُ الشَّيْخُ ، وَأَمْسَكَ بِالْحَبْلِ ، وَحَوْلَهُ عَدَدٌ مِنْ فُرْسَانِ السِّبَاحَةِ ، وَأَبْطَالِ الْمَاءِ ، وَرَجَعَ فِي الْمَوْكِبِ إِلَىٰ

---

(١) عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلاً: أدْرَكَ ، مَيَّزَ.

(٢) عُوْد جمع عِيْدَان وَأَعْوَاد: كل خشبة ، دقيقة كانت أو غليظة ، رطبة كانت أو يابسَة.

(٣) نَكَسَ يَنْكُسُ نَكْساً: الرجلَ: قلبه وجعل أعلاه أسفله أو مقدمه مؤخره.

(٤) قَاءَ يَقِيءُ قَيْئاً: أَلْقَىٰ القَيْءَ من فَمِه.

(٥) أَفَاقَ يُفِيْقُ إِفَاقَةً: الرجلُ: عَادَ إلى طبيعته ، استيقظ.

الشَّاطِىءِ ، وَقَدْ ذُعِرَ[1] الأُسْتَاذُ بِهٰذِهِ الْحَادِثَةِ ، فَكَانَ يُوْصِيْ كُلَّ مَنْ يَزُوْرُ قَرْيَتَنَا أَلاَّ يَدْخُلَ النَّهْرَ ، وَكَانَ يَقُوْلُ: إِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَتَمَتَّعَ بِالدُّنْيَا ، فَإِيَّاكَ وَالنَّهْرَ.

وَكَانَ الشَّيْخُ لاَ يَزَالُ يَعْتِبُ[2] عَلَىٰ الرَّجُلِ أَنَّهُ لَمْ يُنْجِدْهُ ، وَلَمْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ ، وَلاَ يَرَاهُ مَعْذُوْراً فِيْ هٰذَا الأَمْرِ.



(١) ذُعِرَ يذْعَرُ مَذْعُورٌ: فَزِعَ.

(٢) عَتَبَ يَعْتِبُ عَتْباً عِتَاباً: الرَّجلُ على فلانٍ: لاَمَه برفقٍ على قيامه بعمل ما ، أو عدم قيامه به.

(٥١)

فَـتَـىٰ[1] الإسْـلاَمِ

هَلْ تعْرفُ فِتْيَانـاً هُمْ فِي السَّابِعَةَ عَشَرَةَ ، أَوِ الثَّامِنَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِمْ؟ بَلَّغَكَ اللهُ فَوْقَ هٰذِهِ السِّنِّ وَعَمَّرَكَ طَوِيْلاً .

إِنَّكَ لَتَعْرِفُ مِنْهُمْ كَثِيْراً! فَهَلْ تَعْرِف عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُوْنَ وَيَشْرَبُوْنَ ، وَيَرْتَعُوْنَ[2] وَيَلْعَبُوْنَ وَيَتَجَمَّلُوْنَ[3] فِي الْمَلاَبِس ، وَيَتَـأَنَّـقُوْنُ[4] فِيْ الْهِنْدَامِ[5] وَالزِّيْنَةِ .

وَإِذَا امْتَازَ فِيْهِمْ فَتىً ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ ، عَكَفَ[6] عَلَىٰ دِرَاسَتِهِ

---

(١) فتىً جمع فِتْيَان وفِتْيَة: شابٌّ بين المراهقة والرُّجُولةِ.

(٢) يَرْتَعُوْنَ (مِنْ رَتَعَ يرتَعُ رَتْعاً) في المكان: أي يُقيمون ويتنعَّمون ويأكلون فيه ويشربون ما يشاؤون في خصب وسعة.

(٣) تَحَمَّل يَتَحَمَّلُ تَحمُّلاً: ظَهَرَ بما يَجْملُ.

(٤) تَأَنَّقَ يَتَأَنَّقُ تَأَنُّقاً: اعْتَنَى بمَظْهَرِهِ وبَدَا أَنِيْقاً.

(٥) الهِنْدَامُ: حُسْنُ القدِّ وتَنْظِيمُ الْمَلاَبِس.

(٦) عَكَفَ يَعْكُفُ عُكُوْفاً: الرَّجلُ على الشيءِ أو الأمر: أَقْبَلَ عليه ولَزِمَهُ.

وَمُطَالَعَتِهِ ، وَجَدَّ فِيْهَا وَاجْتَهَدَ ، حَتَّىٰ بَـرَزَ[1] فِي الاِخْتِبَارَاتِ ، وَأَحْرَزَ[2] الْجَوَائِزَ وَالْوِسَامَاتِ[3] .

وَإِذَا طَمَحَ[4] فِيْهِمْ شَابٌّ اجْتَهَدَ لِوَظِيْفَةٍ فِيْ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الْحُكُوْمَةِ فَصَارَ يَتَقَاضَىٰ رَاتِباً شَهْرِيّاً .

ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَتِلْكَ أَقْصَىٰ أَمَانِيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ .

وَلٰكِنْ لَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الإِسْلَامِ ، وَكَانَتِ الْهِمَمُ عَالِيَةً ، كَانَ الشَّابُّ الْمُسْلِمُ يَطْمَحُ إِلَىٰ إِقَامَةِ الْجِهَادِ ، وَفَتْحِ الْبِلَادِ ، فَيَفْتَحُ قُطْراً أَوْ يُؤَسِّسُ دَوْلَةً أَوْ يَمُوْتُ شَهِيْداً .

هٰذَا مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ الثَّقَفِيُّ قَدْ غَزَا[5] الْهِنْدَ ـ وَهِيَ بِلَادٌ بَعِيْدَةٌ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ وَرَاءَ الْبِحَارِ ـ فَهَزَمَ الْجُنُوْدَ ، وَقَتَلَ الْمُلُوْكَ ، وَوَظَّفَ[6] الْخِرَاجَ ، وَسَبَىٰ[7] الذُّرِّيَّةَ ، وَفَتَحَ مُحَمَّدٌ

---

(١) بَـرَّزَ يُـبَـرِّزُ تَـبْرِيزاً: فَاقَ أَقْرَانه.

(٢) أَحْرَزَ يُحْرِزُ إِحْرَازاً: الجائزة وما نحوها: حَصَلَ عليها.

(٣) وِسَامة جمع وِسَامات: ما يُعَلَّق على صدر من أحسن عملاً مكافأة له عليه.

(٤) طَمَحَ يَطْمَحُ طُمُوْحاً: تَطَلَّعَ إلى تحقيق هدفٍ بعيدٍ.

(٥) غَزَا يَغْزُوْ غَزْواً: سَارَ إلى قتال العدوّ في أرضه.

(٦) وَظَّف يُوَظِّف تَوْظِيْفاً: الرجلُ فلاناً: أَسْنَدَ إليه وظيفةً.

(٧) سَبَىٰ يَسْبِي سَبْياً: عَدُوَّه: أَسره.

السِّنْدَ[١] ، وَتَوَغَّلَ فِي الْهِنْدِ ، حَتَّىٰ قَطَعَ نَهْرَ بَيَاسَ[٢] إِلَىٰ الْمُلْتَانِ ، وَفَتَحَهَا ، وَخَضَعَ أَهْلُ الْهِنْدِ لِمُحَمَّدٍ ، وَأَحَبُّوْهُ لِدِيْنِهِ وَكَرَمِهِ وَعَدْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الْعَدُوَّ الْقَاهِرَ لَا يُحَبُّ ، وَصَنَعُوْا لَهُ تِمْثَالاً عَلَىٰ عَادَةِ أَهْلِ الْهِنْدِ .

وَتِلْكَ الْفُتُوْحُ الْعَظِيْمَةُ كُلُّهَا كَانَتْ فِيْ مُدَّةٍ قَصِيْرَةٍ جِدّاً .

هٰذَا ، وَفَاتِحُ السِّنْدِ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّابِعَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَفِيْ ذٰلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ :

سَاسَ الرِّجَالَ لِسَبْعَ عَشَرَةَ حِجَّةً[٣]
وَلِـــدَاتُـــهُ عَـــنْ ذَاكَ فِـــيْ أَشْغَـــالِ



---

(١) السِّنْدُ : اسم مكان يطلق على الجزء الشمالي الغربي من الهند ، يتوسطه حوض نهر السند ، وأكثره الآن يقع في باكستان الغربية .

(٢) نَهْر بيَاس : يُعَدُّ من أكبر وأهم الأنهار الَّتي تجري في الهند .

(٣) حِجَّة جمع حِجج : السنة .

(٥٢)

الـرِّمَـايَـــةُ

سَأَلْتُ أَبِيْ أَنْ يَشْتَرِيَ لِيْ بُنْدُقِيَّـةً صَغِيْرَةً ، لأَصِيْدَ الطُّيُوْرَ: كَالْيمامِ وَالْحَمَام وَالْـغُـرَابِ الَّذِيْ يُـؤْذِيْ كَثِيْراً وَيَلِغُ[1] فِي الْمَاءِ ، وَأَتَمَرَّنَ عَلَىٰ الرَّمْيِ ، فَاشْتَرَىٰ لِيْ بُـنْـدُقِيَّـةً وَحُقَّةً[2] مِنَ الرَّشَاشِ .

وَكُنْتُ إِذَا رَجَعْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، أَوْ كَانَ يَوْمُ عُطْلَةٍ أَخَذْتُ الْبُنْدُقِيَّةَ ، وَعَدَداً مِنَ الرَّشَاشِ ، وَذَهَبْتُ إِلَىٰ الْبُسْتَانِ أَرْمِي الطُّيُوْرَ .

وَفِي الأَوَّلِ لاَ أُصِيْبُ طَائِراً ، وَأُخْطِىءُ كُلَّ مَرَّةٍ ، ثُمَّ صِرْتُ

---

(١) وَلَغَ يَلَغُ وُلُوغاً: الحيوانُ الإناءَ وفيه: شرب ما فيه بطرف لسانه. والطيورُ: شربتْ ما فيه من منقارها.

(٢) حُقَّة جمع حُقَق وحِقَاق: وعاء صغير ذو غطاءٍ يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

أُصِيْبُ مَرَّةً فِيْ ثَلاثِ طَلَقَاتٍ ، وَأَصِيْدُ بَعْضَ الطُّيُوْرِ ، حَتَّىٰ تَمَرَّنْتُ فِيْ شَهْرَيْنِ ، وَاشْتَدَّ سَاعِدِيْ[1] .

وَرَأَيْتُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ شَيْئاً غَرِيْباً ، كَانَتْ عِنْدَهُ صَفِيْحَةٌ ، وَكَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الصَّفِيْحَةِ مِثْلُ فَلْسٍ ، لَهُ لَوْنٌ يَلْمَعُ ، وَيَظْهَرُ مِنْ بَعِيْدٍ .

وَكَانَ بِجَانِبِ هٰذَا الْفَلْسِ مِثْلُ جِرَابٍ ، كَانَ يَشْحَنُهُ بِالْبَارُوْدِ ، وَيَسُدُّهُ بِالْقِرْطَاسِ ، وَكَانَ فِيْ هٰذِهِ الصَّفِيْحَةِ رَسْمٌ مِنْ حَدِيْدٍ : جُنْدِيٌّ فِيْ لِبَاسِ جُنْدِيٍّ ، فِيْ يَدِهِ قُبَّعَةٌ .

وَكُنَّا نُبَارِيْ[2] فِي الرَّمْيِ ، وَنَرْمِيْ هٰذَا الْفَلْسِ بِالرَّشَاشِ ، فَإِذَا أَصَابَ إِنْسَانٌ الْفَلْسَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ ، وَسَمِعَ النَّاسُ صَوْتَهُ مِنْ بَعِيْدٍ ، وَانْفَتَحَ الْبَابُ ، وَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ حَدِيْدٍ ، فِيْ يَده عَلَامَةٌ يُشِيْرُ بِهَا إِلَىٰ الْهَدَفِ وَيُخْبِرُ بِالإِصَابَةِ .

وَظَهَرَ الْجُنْدِيُّ رَافِعاً قُبَّعَتَهُ يُسَلِّمُ عَلَىٰ الْمُصِيْبِ ، وَكَأَنَّهُ يُهَنِّئُهُ بِنَجَاحِهِ .

وَإِذَا أَخْطَأَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ : لَمْ يَنْطَلِقِ الْمِدْفَعُ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكِ الْجُنْدِيُّ مِنْ مَكَانِهِ ، وَمِنَ الْغَرِيْبِ أَنِّي كُنْتُ أُصِيْبُ الْفَلْسَ

---

(١) اشتَدَّ سَاعِدي : قَوِيَ .

(٢) بَارَىٰ يُبَاري مُبَاراة : فلانٌ في الأمر : عَارَضَه فيه أو فعل مثل فعلهِ .

فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ دَائِماً ، وَإِذَ انْطَلَقَ الْمِدْفَعُ سُرِرْتُ سُرُوْراً عَظِيْماً .

وَبَعْدَ أَشْهُرٍ قَدَرْتُ أَنْ أَسْتَعْمِلَ الْبُنْدُقِيَّةَ الْكَبِيْرَةَ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فِي الصَّيْدِ ، وَأَصِيْدُ الْحَمَامَ الأَخْضَرَ وَالْبَطَّ وَأَنواعاً مِنَ الطُّيُوْرِ .

وَسَمِعْتُ الْمُعَلِّمَ يَقُوْلُ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَثَّ عَلَىٰ الرَّمْيِ كَثِيْراً ، وَشَارَكَ فِي الْمُنَاضَلَةِ[1] ، وَقَالَ : «ارْمُوْا يَا بَنِي إِسْمَاعِيْلَ ! فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً» وَقَالَ : «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» .

فَسُرِرْتُ كَثِيْراً ، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَمَلِي لَمْ يَكُنْ عَبَثاً ، وَأَنِّيْ لَمْ أُضَيِّعْ وَقْتِي .



(١) المناضَلَة : المقاومة والمنافسة .

(٥٣)

الْـجَمَـــلُ

(١)

انْظُرُوْا إِلَىٰ الإِبلِ: كَيْفَ خُلِقَتْ ، تَرَوْهَا لاَ مَثِيْلَ لَهَا[١] فِي الْخِلْقَةِ ، فَإِنَّ الْجَمَلَ أَكْبَرُ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ[٢] جِسْماً وَأَطْوَلُهُ سَاقاً ، وَلِذٰلِكَ كَانَتْ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةً ، حَتَّىٰ يُمْكِنَهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ بِدُوْنِ أَنْ يَبْرُكَ ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ لِيَكُوْنَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ ، وَأَرْجُلُهُ فِيْهَا أَخْفَافٌ[٣] تَمْنَعُ سَوْخَها[٤] فِي رِمَالِ

---

(١) لا مَثِيْلَ لها: لا نظير لها.

(٢) الدَّاجِن جمع الدَّوَاجن: كل ما أَلِفَ البيوتَ وأقام بها من حيوان وطير.

(٣) خف جمع أَخْفَاف: حافِر.

(٤) سَوْخَهَا: غَوْصها.

الصَّحْرَاءِ الَّتِيْ كَثِيْراً مَا يَسِيْرُ فِيْهَا ، وَعَلَىٰ ظَهْرِهِ سَنَامٌ[1] كُلُّهُ شَحْمٌ ، يُرَكَّبُ عَلَيْهِ الْقَتَبُ[2] ، وَعَيْنَاهُ سَوْدَاوَانِ وَاسعَتَانِ ، تَشفَّانِ[3] عَنْ حِلْمٍ وَدَعَةٍ ، وَلَهُ فِيْ وَسْطِ بَطْنِهِ قُرْصٌ غَلِيْظٌ يُسَمَّىٰ الْكَلْكَل ، يَسْتَنِدُ عَلَيْهِ مَتَىٰ بَرَكَ ، وَلَهُ فِيْ أَرْجُلِهِ قِطَعٌ عَدِيْمَةُ الْحِسِّ فِيْ مَوَاقِعِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ .

وَجَوْفُ الْجَمَلِ عَجِيْبٌ فِيْ تَرْكِيْبِهِ ، لأَنَّهُ يَحْتَوِيْ عَلَىٰ جُمْلَةِ كُرُوْشٍ[4] ، يَخْزُنُ فِيْهَا مِقْدَاراً عَظِيْماً مِنَ الْغِذَاءِ ، حَتَّى إِذَا جَاعَ ، وَلَمْ يَجِدْ أَكْلاً ، أَخْرَجَ مِنْ كِرْشِهِ جِرَّةً ، وَاجْتَرَّهَا ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّىٰ حَيَوَاناً مُجْتَرّاً ، وَإِذَا فَرَغَ مَا خَزَنَـهُ فِيْ جَوْفِهِ ، فَإِنَّ شَحْمَ سَنَامِهِ يَتَحَلَّلُ شَيْئاً فَشَيْئاً لِيَغْذُوَهُ وَيَكْفِيْهِ مُدَّةً طَوِيْلَةً .

وَلِلْجَمَلِ فِيْ جَوْفِهِ جُمْلَةُ أَزْقَاقٍ[5] تَمْتَلِىءُ بِالْمَاءِ عِنْدَمَا يَشْرَبُ ، حَتَّىٰ إِذَا عَطِشَ فِيْ مَكَانٍ قَـفْرٍ لاَ مَاءَ فِيْهِ ، أَغْنَاهُ مَا خَزَنَـهُ عَنِ الشُّرْبِ زَمَناً طَوِيْلاً .

---

(١) سَنَامٌ جمع أَسْنِمَة: كتلة كبيرة من الشَّحْم تكون محدَّبة على ظهر الجمل.
(٢) القَتَب جمع الأَقْتَاب: الرَّحْلُ الصغير يوضع على قدر سَنَام البَعِيْر.
(٣) تَشفَّان أي: تَرقَّانِ حتى يُرى ما خلف عينيه من حلم ودعة.
(٤) كِرْشٌ جمع كُرُوْش: مِعْدَة.
(٥) زَقٌّ جمع أزْقَاق: وعاء من جلد.

(٥٤)

الْـجَمَــلُ

(٢)

فِيْ عِدَّةِ جِهَاتٍ مِنَ الدُّنْيَا صَحَارَىٰ قَاحِلَةٌ لَا حَيَوَانَ فِيْهَا ، وَلَا نَبَاتَ ، أَرْضُهَا رِمَالٌ جَافَّةٌ.

لَا تَرَىٰ فِيْهَا قَطْرَةَ ماءٍ ، يَسْلُكُهَا النَّاسُ اضْطِرَاراً ، فَيَحْمِلُوْنَ زَادَهُمْ: مِنْ مَاءٍ وَطَعَامٍ ، عَلَىٰ ظُهُوْرِ الْجِمَالِ ، وَيَسِيْرُوْنَ فِيْ تِلْكَ الْقِفَارِ[١] مُجْتَمِعِيْنَ ، وَإِبِلُهُمْ مُتَتَابِعَةٌ كَالْقِطَارِ ، وَهِيَ تَسِيْرُ بِهِمْ هَادِئَةً سَاكِنَةً ، تَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوْعِ وَالْعَطَشِ مُعْظَمَ الطَّرِيْقِ ، لِأَنَّهَا قَدْ خَزَنَتْ مُؤْنَتَـهَا فِيْ جَوْفِهَا قَبْلَ الرَّحِيْلِ ، وَتَحْمِلُ فَوْقَ ذٰلِكَ مِنَ الْمَتَاجِرِ أَحْمَالاً ثِقَالاً ، لَا تَئِنُّ[٢] مِنْهَا وَلَا تَكِلُّ[٣] ،

---

(١) قَـفْر جمع قِفَار: أرض خالية من الماء والعُشب والناس.

(٢) يَـئِـنُّ أَنِيْناً: تَأَوَّه ألماً.

(٣) كَلَّ يَكِلُّ كَلاًّ : تعِبَ.

فَتَرىٰ الْجَمَلَ كَأَنَّهُ مَرْكَبٌ يَشُقُّ تِلْكَ الرِّمَالَ الْوَاسِعَةَ ، وَلِذَا سُمِّيَ «سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ». وَإِنَّ ضَلَّ الْمُسَافِرُوْنَ الطَّرِيْقَ فِي الصَّحْرَاءِ يَأْخُذُهُمُ الْقَلَقُ عَلَىٰ حَيَاتِهِمْ ، مَخَافَةَ أَنْ يَنْفَدَ زَادُهُمْ فَيَمُوْتُوْنَ جُوْعاً وَعَطَشاً ، وَلٰكِنَّ الْجَمَلَ يُنْقِذُهُمْ أَحْيَاناً مِنْ تِلْكَ الأَخْطَارِ ، لأَنَّهُ يَشُمُّ الْمَاءَ مِنْ بُعْدٍ ، فَيَسِيْرُ نَحْوَهُ بِسُرْعَةٍ غَرِيْبَةٍ ، لِيَسْتَقِيَ صَاحِبُهُ.

وَالْجَمَلُ سَهْلُ الْقِيَادِ ، لَيِّنُ الطِّبَاعِ ، يَتَحَمَّلُ كَثِيْراً مِنَ الأَذىٰ بِالصَّبْرِ ، وَلٰكِنَّهُ يَثُوْرُ مَتَىٰ بَلَغَ الأَذىٰ شِدَّةً عَظِيْمَةً ، فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ آذَاهُ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ إِلاَّ إِذَا ثَأَرَ لِنَفْسِهِ وَفَتَكَ[1] بِهِ.

وَإِذَا قَوِيَ الْجَمَلُ اشْتَدَّ بَأْسُهُ[2] وَعَافَ[3] الأَكْلَ مَا لَمْ يُوْضَعُ فِيْ فَمِهِ ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ عَنْهُ: إِنَّهُ صَائِمٌ ، وَفِيْ هٰذِهِ الْحَالَةِ يُخْرِجُ شِقْشِقَتَهُ[4] مِنْ حَلْقِهِ وَيُشَقْشِقُ[5] مِنَ الْغَضَبِ.

* * *

(١) فَتَكَ يَفْتِكُ فَتْكاً: به ، قتَلَهُ.

(٢) اشْتَدَّ بَأْسُه: كثُرَتْ شدَّتُه وقوَّتُه.

(٣) عَافَ يَعَافُ عَيْفاً: الجملُ الأكلَ: كَرِهَه فتَرَكَه.

(٤) شِقْشِقَة جمع شَقَاشِق: شيء كالرئة يُخرجه الجملُ من فيه إذا هَاجَ وَهَدَر.

(٥) شَقْشَقَ يُشَقْشِقُ: الجملُ: هَدَر.

(٥٥)

أنَا هُنَا فَاعْرِفُوْنِي!



مَوْلِدِيْ وَوَطَنِي مَا تُسَمُّوْنَهُ الْبَحْرَ! أَنَا ابْنُ أُمَّةٍ عظِيْمَةٍ، قَدِ امْتَدَّتْ عَلَىٰ مَسَافَةِ آلَافٍ مِنَ الأَمْيَالِ، وَيَقُوْلُوْنَ: إِنَّ أُمَّتِيْ أَعْظَمُ مِنْ أُمَّةِ الْبَرِّ؛ فَقَدْ شَغَلْنَا نَحْنُ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِ الْكُرَةِ، وَالْيَابِسُ مِنْهَا نَحْوُ رُبْعٍ.

وَقَدْ فَارَقْتُ وَطَنِي قَبْلَ شَهْرَيْنِ، لَمَّا اشْتَدَّ الْحَرُّ فِيْ هٰذَا

الصَّيْفِ ، تَكَوَّنَ بُخَارٌ ، وَفَارَقَ الْبَحْرَ ، وَسَارَتْ بِهِ الرِّيَاحُ إِلَىٰ الْجِبَالِ ، وَهُوَ السَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الأَمْرُ مِنَ اللهِ ، تَحَلَّلَ هٰذَا الْبُخَارُ بِالْحَرَارَةِ ، وَنَزَلَ قَطَرَاتٍ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَقَالَ النَّاسُ: الْمَطَرُ! الْمَطَرُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

لَعَلَّكُمْ رَأَيْتُمْ قِدْراً[1] عَلَىٰ النَّارِ فِيْهَا مَاءٌ ، فَإِذَا غَلَتِ الْقِدْرُ ، تَصَاعَدَ[2] مِنْهَا مِثْلُ دُخَانٍ ، وَهُوَ الْبُخَارُ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ ، وَجَمَدَتْ قَطَرَاتِيْ مِنَ الْبَرْدِ ، وَوَقَعَتْ عَلَىٰ الأَرْضِ مِثْلَ الزُّجَاجِ ، قَالَ النَّاسُ: الْبَرَدُ! الْبَرَدُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ أَسْقُطُ فِي الْجِبَالِ مِثْلَ الصُّوْفِ[3] الأَبْيَضِ اللاَّمِعِ ، وَأَلْمَعُ فِي الشَّمْسِ مِثْلَ اللُّجَيْنِ ، فَيَكُوْنُ مَنْظَراً جَمِيْلاً ، وَيَقُوْلُ النَّاسُ: الثَّلْجُ! الثَّلْجُ! وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَقَدْ يَشْتَدُّ الْبَرْدُ فِي الشِّتَاءِ ، فَيَجْمُدُ مَا كَانَ مِنَ الْمَاءِ ،

---

(١) قِدْرٌ جمع قُدُوْر: إناء يُطْبَخُ فِيه الطعام.
(٢) تَصَاعَدَ يَتَصَاعَدُ: الشيءُ: ارْتَفَعَ.
(٣) صُوف جمع أَصْوَاف: مَا يَنْبُتُ على جسم الشاة ونحوها ممَّا ليس وبراً ولا شعراً.

وَيقُوْلُ النَّاسُ: الْجَلِيْدُ[1] الْجَلِيْدُ! وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِي!.

وَإِذَا هَبَطْتُّ مِنَ الْجِبَالِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَزَاحَمَنِي[2] صُخُوْرٌ أَوْ أَحْجَارٌ، كَانَ شَلاَّلٌ[3] يَكُوْنُ لَهُ صَوْتٌ هَائِلٌ وَمَنْظَرٌ جَمِيْلٌ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ!

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ شَلاَّلاَتٌ، خَرَجْتُ مِنَ الْجِبَالِ، فَكُنْتُ نَهْراً، يَكُوْنُ فِي مَبْدَئِهِ صَغِيْراً، ثُمَّ يَكُوْنُ عَرِيْضاً عَمِيْقاً، وَقَالَ النَّاسُ: نَهْرُ السِّنْدِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ، وَالْفُرَاتِ، وَالنِّيْلِ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

لَعَلَّكَ رَأَيْتَ فِي الصَّبَاحِ أَيَّامَ الشِّتَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ، وَيُسَمِّيْهِ النَّاسُ الضَّبَابَ، وَأَنَا هُنَا، فَاعْرِفُوْنِيْ.

وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ قَطَرَاتٍ عَلَىٰ أَوْرَاقِ الأَشْجَارِ، وَعَلَىٰ العُشْبِ وَالأَزْهَارِ، فِيْ أَيَّامِ الشِّتَاءِ، وَيُسَمِّيْهَا النَّاسُ الطَّلَّ[4] وَالنَّدَىٰ[5]، وَأَنَا هُنَا. فَاعْرِفُوْنِيْ.

---

(١) الجَلِيْدُ: المياه المتجمِّدة بتأثير البرودة.

(٢) زَاحَمَ يُزَاحِمُ مُزَاحمةً: الشيءُ: دَفَعَه في مكانٍ ضيِّق.

(٣) شلاَّل جمع شَلاَّلاَت: انحدار فجائي في مجرى النهر.

(٤) الطَّل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

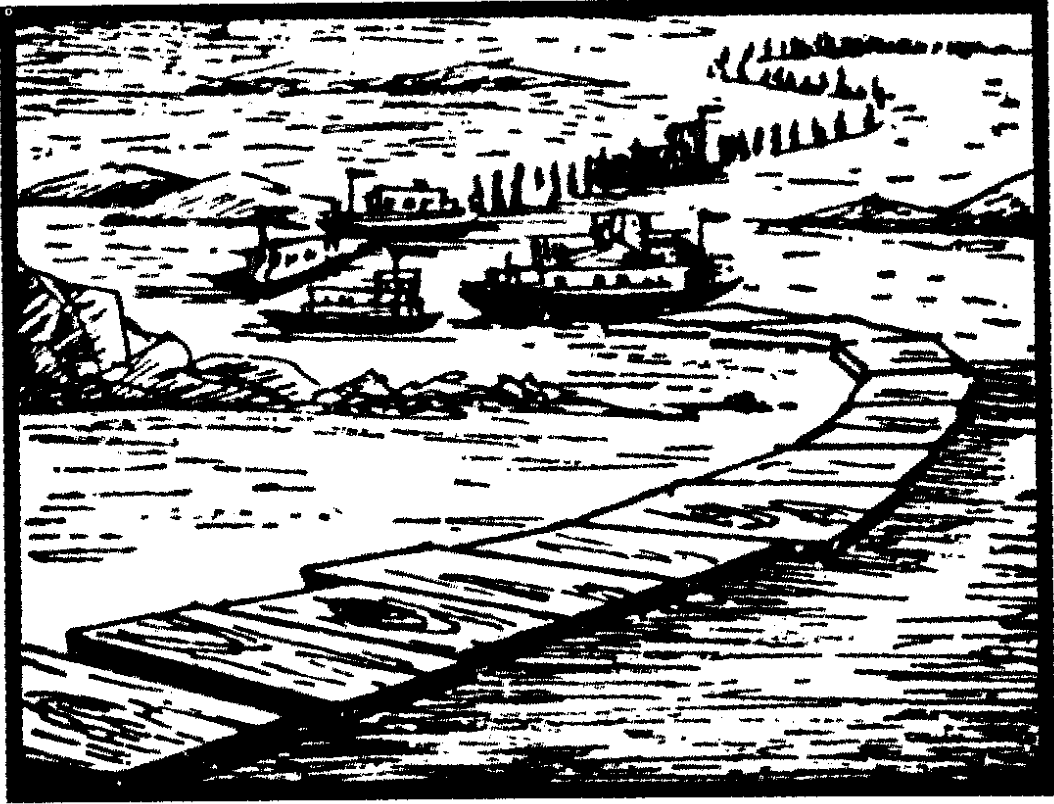
(٥) النَّدى: قطرات ماء كالمطر تُرى عند الصباح على النبات وغيره.

وَقَدَ أَجْمُـدُ بِالصِّنَاعَةِ فِي الْمَصَانِعِ ، وَيَحْرِصُ عَلَيَّ النَّاسُ أَيَّامَ الصَّيْفِ ، فَلاَ يَشْرَبُوْنَ الْمَاءَ بِغَيْرِ هٰذَا الْجَمَدِ ، وَلاَ يَـرْوَوْنَ إلاَّ بِـهِ ، وَأَنَا هُنَا ، فَاعْرِفُوْنِي .

* * *

(٥٦)

سَفِيْنَةٌ عَلَىٰ الْبَـرِّ



هَلْ سَمِعْتَ بِسَفِيْنَـةٍ تَسِيْرُ عَلَىٰ الْبَرِّ؟ وَهَلْ تُصَدِّقُ إِذَا أَخْبَرَكَ بِـهِ أَحَدٌ؟!

أَظُنَّكَ تَـقُوْلُ ـ وَلَكَ الْحَقُّ ـ: مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِيْ آبَائِنَا

الأَوَّلِيْنَ. وَلٰكِنَّ مُحَمَّداً الثَّانِي الْعُثْمَانِيَّ فَاتِحَ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، سَيَّرَ سَبْعِيْنَ سَفِيْنَةً عَلَىٰ الْبَرِّ.

هَلْ تَعْرِفُ كَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

غَزَا الْعَرَبُ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةَ الْعُظْمَىٰ سِتَّ مَرَّاتٍ ، وَلَمْ يَفْتَحُوْهَا ، وَقَدْ قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ هٰذَا الْفَتْحُ الْعَظِيْمُ بِيَدِ شَابٍّ مُسْلِمٍ مِنْ آلِ عُثْمَانَ ، وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ وَالْعِشْرِيْنَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ.

زَحَفَ مُحَمَّدٌ إِلَىٰ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، وَأَعَدَّ لِذٰلِكَ عُدَّةً عَظِيْمَةً ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

فَكَانَ تَحْتَ قِيَادَتِهِ ثَلاثُمِئَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، وَمَعَهُ مِدْفَعِيَّةٌ هَائِلَةٌ ، فِيْهَا مِدْفَعٌ لا يُوْجَدُ فِيْ أَوْرُبَّا أَضْخَمُ[1] مِنْهُ ، أَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ، مَرْمَاهُ[2] أَكْثَرُ مِنْ مِيْلٍ.

وَكَانَ أُسْطُوْلُهُ[3] مُرَكَّباً مِنْ مِئَةِ سَفِيْنَةٍ حَرْبِيَّةٍ.

---

(١) أَضْخَمُ منه: أَعْظَمُ منه.

(٢) مَرْمَىٰ جمع مَرام: مَا تُرْمىٰ إليه السهام ونحوها.

(٣) أُسْطُول جمع أَسَاطِيل: مجموعة من السُّفُنِ تُعَدُّ للحرب أو للنقل التجاري.

وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَأَىٰ أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ سَلْسَلَ[١] خَلِيْجَ قَرْنِ الذَّهَبِ ـ وَهُوَ مَدْخَلُ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ـ بِالسَّلَاسِلِ ، فَكَيْفَ يَعْبُرُهُ بِأُسْطُوْلِهِ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ ، وَوَجَدَ حِيْلَةً!

رَأَىٰ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْعُبُوْرُ إِلَىٰ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ مِنْ جِهَةِ قَاسم بَاشَا .

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْجِهَةَ بَعِيْدَةٌ مِنْ سُفُنِهِ ، فَمَنْ يَحْمِلُهَا وَمَنْ يَنْقُلُهَا مِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ إِلَىٰ تِلْكَ الْجِهَةِ ، وَالْمَسَافَةُ بَعِيْدَةٌ؟

فَكَّرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَمْ يَعْجَزْ وَلَمْ يَيْأَسْ وَوَجَدَ حِيْلَةً!

طَلَىٰ[٢] الأَخْشَابَ بِالشَّحْمِ ، فَلَمَّا أَمْلَسَتْ[٣] أَزْلَقَ[٤] عَلَيْهَا السُّفُنَ ، وَهِيَ سَبْعُوْنَ سَفِيْنَةٍ .

وَمَا رَاعَ[٥] أَهْلُ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، إِلاَّ وَسُفُنُ الْمُسْلِمِيْنَ قَدْ أَرْسَتْ[٦] عَلَىٰ سَاحِلِ الْقُسْطُنْطِيْنِيَّةِ ، وَسُقِطَ فِيْ أَيْدِيْهِمْ[٧] .

---

(١) سَلْسَلَ يُسَلْسِلُ: الأشياءَ: وَصَلَ بَعْضَها ببعْضٍ كأنها سِلْسلة .

(٢) طَلَى يَطْلِي طَلْياً: دَهَنَ .

(٣) أَمْلَسَ يُمْلِسُ إِمْلاساً: لاَنَ ونَعمَ .

(٤) أَزْلَقَ يُزْلِقُ إِزْلاقاً عليه السفنَ: دفَعَها ودَحْرَجَها .

(٥) مَا رَاعَ: ما أَفْزَعَ . والرَّوْع: الفَزَع والخوف .

(٦) أرْسَى يُرْسِي إِرْسَاءً: تَوَقف (توقفت السفن عند الشاطىء) .

(٧) سُقِطَ في أَيْدِيْهم: تَحَيَّروا .

وَهٰكَذَا أَخَذَ مُحَمَّدٌ الْقُسْطُنْطِينِيَّـةَ ـ عَاصِمَةَ الدَّوْلَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ ـ وَسَقَطَتْ عَاصِمَةُ النَّصْرَانِيَّةِ الْمَنِيْعَةُ أَمَامَ قَائِدٍ مُسْلِم شَابٍّ .

وَلَا تَـزَالُ هٰذِهِ الْمَدِيْنَةُ الْعَظِيْمَةُ ، وَتُرْكِـيَّا ، فِيْ يَدِ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ سَنَةِ ٨٥٣ هـ ـ يَوْمَ فَتَحَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُرَادٍ ـ إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هٰذَا .

و ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ .

* * *

(٥٧)

الْخَلِيْفَةُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ
رحمة الله عليه

(١)

وُلِدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سَنَةَ ٦١ هـ. وَأُمُّهُ أُمُّ عَاصِمٍ بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، جَمَعَ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ صَغِيْرٌ ، وَبَعَثَهُ أَبُوْهُ إِلَىٰ الْمَدِيْنَةِ يَتَأَدَّبُ بِهَا ، وَكَانَ يَأْتِي عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ كَثِيْراً ، لِمَكَانِ أُمِّهِ مِنْهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ أُمِّهِ ، فَيَقُوْلُ: يَا أُمَّهْ! أَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ خَالِيْ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ فِيْ شَبَابِهِ مُتَنَعِّماً ، يُكْثِرُ مِنَ الطِّيْبِ ، حَتَّىٰ تُوْجَدَ رَائِحَتُهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِيْ يَمُرُّ بِهِ ، وَيَمْشِي مِشْيَةً تُسَمَّىٰ «الْعُمَرِيَّةَ» كَانَ الْجَوَارِيْ يَتَعَلَّمْنَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَىٰ هٰذَا التَّنَعُّمِ ، حَتَّىٰ وَلِيَ الْخِلَافَةَ ، فَزَهِدَ فِي الدُّنْيَا وَرَفَضَهَا.

وَكَانَ فِيْ شَبَابِهِ ، وَوِلَايَتِهِ لِلْمَدِيْنَةِ ، كَثِيْرَ التَّعْظِيْمِ لِلْعُلَمَاءِ ، شَدِيْدَ الإِعْظَامِ لِمَسْجِدِ الرَّسُوْلِ ﷺ ، خَاشِعاً مُتَدَيِّناً .

وَعَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ وَعُمَرُ لَا يَعْلَمُ ، فَلَمَّا عَلِمَ فَزِعَ .

وَقَالَ : وَاللهِ إِنَّ هٰذَا الأَمْرَ مَا سَأَلْتُ اللهَ قَطُّ .

وَقَدَّمَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْمَرَاكِبِ مَرْكَبَ الْخَلِيْفَةِ فَأَبَىٰ وَقَالَ : ايْتُوْنِي بِبَغْلَتِيْ ، وَرَدَّ الْمَرَاكِبَ ، وَالسُّرَادِقَاتِ[1] وَالْفُرُشَ ، وَالأَدْهَانَ ، وَالثِّيَابَ الْخَاصَّةَ بِالْخَلِيْفَةِ ، إِلَىٰ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِيْنَ .

وَجَلَسَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَىٰ الشَّرِيْعَةِ ، وَرَدَّ الْمَظَالِمَ ، وَأَحْيَا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ ، وَرَفَضَ الدُّنْيا ، وَزَهِدَ فِيْهَا ، وَنَهَىٰ عَنِ الْقِيَامِ ، وَابْتَدَأَ بِالسَّلَامِ ، وَتَرَكَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَتَرَكَ أَنْ يُخْدَمَ .

كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَامَ إِلَىٰ السِّرَاجِ ، فَأَصْلَحَهُ ، فَقِيْلَ لَهُ : يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ نَكْفِيْكَ ، قَالَ : وَمَا ضَرَّنِي؟ قُمْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ ، وَرَجَعْتُ وَأَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ .

---

(١) سُرَادِق جمع سُرَادِقات : خَيْمَة يجتمع فيها الناس لعُرْسٍ ومأتم أو غيرهما .

وَأُتِـيَ ذَاتَ يَـوْمٍ مِـنَ الْفَـيْءِ[1] بِعَنْبَـرَةٍ[2]، فَـأَخَـذَ بِيَـدِهِ فَمَسَحَهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُفِعَتْ حَتَّىٰ تُبَاعَ ، ثُمَّ أَمَرَّ يَدَهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ ، فَوَجَدَ رِيْحَهَا ، فَدَعَا بِوَضُوْءٍ فَتَوَضَّأَ .

وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ يَأْتِيْهِ بِقُمْقُمٍ[3] مِنْ مَاءٍ مُسَخَّنٍ يَتَوَضَّأُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ يَوْمَاً: أَتُسَخِّنُ الْمَاءَ فِي مَطْبَخِ الْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: أَفْسَدْتَّهُ عَلَيْنَا ، ثُمَّ حَاسَبَ تِلْكَ الأَيَّامَ ، وَأَدْخَلَ الْحَطَبَ فِي الْمَطْبَخِ ، وَأَبْطَأَ يَوْماً عَنِ الْجُمُعَةِ قَلِيْلاً فَعُوْتِبَ فِيْ ذٰلِكَ فَقَالَ: إِنَّمَا انْتَظَرْتُ قَمِيْصِيْ غَسَلْتُهُ أَنْ يَجِفَّ .

قَالَ أَزْهَرُ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيْزِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَعَلَيْهِ قَمِيْصٌ مَرْقُوْعٌ .



---

(١) فَيْءٌ جمع أَفْيَاء: خَرَاج ، غَنِيمة .

(٢) عَنْـبَرَة: مادة صُلْبَة لاَ طَعْمَ لها ولا رائحة ، تُصبح نوعاً من الطّيب إذا سُحِقَتْ أو أُحْرِقَتْ .

(٣) قُمْقُمٌ جـ قَمَاقِم: إناء صغير من نُحاسٍ أو فِضَّةٍ .

(٥٨)
الْخَلِيْفَةُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ
(٢)

وَلَمْ يُحْدِثْ عُمَرُ مُنْذُ وَلِيَ دَابَّةً[١] وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ جَارِيَةً حَتَّىٰ لَحِقَ بِاللهِ ، وَلَمْ يُرَ ضَاحِكاً مُنْذُ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ.

وَأَتَتْهُ سَلَّتَا رُطَبٍ مِنَ الأُرْدُنِّ ، فَقَالَ : ما هَذا ؟ قَالُوا: رُطَبٌ مِن الأُرْدُنِّ ، قَالَ: عَلاَمَ جِيْءَ بِهِ؟ قَالُوْا: عَلَىٰ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ. قَالَ: فَمَا جَعَلَنِيَ اللهُ أَحَقَّ بِدَوَابِّ الْبَرِيْدِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ، أَخْرِجُوْهُمَا فَبِيْعُوْهُمَا ، وَاجْعَلُوْا ثَمَنَهُمَا فِي عَلَفِ دَوَابِّ الْبَرِيْدِ ، وَاشْتَرَاهُمَا فِي السُّوْقِ ابْنُ أَخِيْهِ وَأَهْدَىٰ إِحْدَاهُمَا إِلَيهِ ، فَأَكَلَ وَقَالَ: الآنَ طَابَ أَكْلُهُ.

وَدَخَلَ عَلَىٰ بَنَاتِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عَلَىٰ

---

(١) دَابَّة جمع دَوَابّ: مَا يُرْكَبُ من الحيوان كالفرس والبغل.

أَفْوَاهِهِنَّ ، فقَالَ لِلْحَاضِنَةِ[1] : مَا شَأْنهُنَّ؟ قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ شَيْءٌ يَتَعَشَّيْنَهُ إِلاَّ عَدَسٌ وَبَصَلٌ ، فكَرِهْنَ أَنْ تَشُمَّ ذٰلِكَ مِنْ أَفوَاهِهِنَّ ، فَبَكَىٰ عُمَرُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُنَّ : يَا بَنَاتِيْ مَا يَنْفعُكُنَّ أَنْ تَعشَّيْنَ الأَلْوَانَ وَيُمَرُّ بِأَبِيْكُنَّ إِلَىٰ النَّارِ ، فَبَكَيْنَ حَتَّىٰ عَلَتْ أَصْوَاتُهُنَّ ، وَوَضَعَ عُمَرُ حَلْيَ زَوْجَتِهِ فِيْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَأَرْجَعَ مَزَارِعَهُ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِيْ عَهْدِ الرَّسُوْلِ ﷺ.

وَإِذَا كَانَ فِي حَوَائِجِ الْعَامَّةِ كَتَبَ عَلَىٰ الشَّمْعِ ، وَإِذَا صَارَ إِلَىٰ حَاجَةِ نَفْسِهِ دَعَا بِسِرَاجِهِ.

وَقَدْ أَغْنَىٰ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ النَّاسَ ، حَتَّىٰ لَمْ يُوْجَدْ فَقِيْرٌ فِيْ بِلَادِ الْمُسْلِمِيْنَ ، وَلَمْ يُوْجَدْ أَحَدٌ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ.

وَكَانَ لَا يُؤَخِّرُ عَمَلَ الْيَوْمِ لِلْغَدِّ ، وَلَا يَعْجَزُ ، قَالَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ : يَا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ! لَوْ رَكِبْتَ فَتَرَوَّحْتَ ، قَالَ : فَمَنْ يَقْضِيْ شُغْلَ ذٰلِكَ الْيَوْمَ؟ قَالَ : تَقْضِيْهِ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ : لَقَدْ ثَقُلَ عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ؟

مَاتَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيْزِ سَنَةَ ١٠١ هـ.

* * *

---

(١) حَاضِنَة جمع حَوَاضِن : المرأة الَّتي تقوم على تربية الصغير.

(٥٩)

فِيْ بَـيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْـصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ

قَالَ سَيِّدُنَا أَبُوْ أَيُّوْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«لَمَّا نَـزَلَ عَلَيَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ بَيْتِيْ نَـزَلَ فِي السُّفْلِ[1] ، وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ فِي الْعُلُوِّ ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! إِنِّيْ لأَكْـرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُوْنَ فَوْقَكَ وَتَـكُوْنَ تَحْتِيْ ، فَاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ ، وَنَنْزِلُ نَحْنُ فَنَـكُوْنَ فِي السُّفْلِ ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوْبَ! إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُوْنَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ.

قَالَ: فَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ فِيْ سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ ، فَلَقَدِ انْكَسَرَ حُبٌّ لَـنَـا فِيْهِ مَاءٌ ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْب بِقَطِيْفَةٍ[2]

---

(١) السُّفْل: تَحْت.

(٢) قَطِيْفَة: نَسِيْج من الحرير أو القُطن.

لَنَا ، مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرُهَا ، نُـنَشِّفُ[1] بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيْه.

قَالَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشَاءَ ، ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ[2] أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ ، حَتَّىٰ بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشَائِهِ ، وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيْهِ بَصَلاً أَوْ ثُوْماً ، فَرَدَّهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فِيْه أَثَـراً ، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعاً ، فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! بِأَبِيْ أَنْتَ وَأُمِّيْ! رَدَدْتَ عَشَاءَكَ ، وَلَمْ أَرَ فِيْهِ مَوْضِعَ يَدِكَ ، وَكُنْتَ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوْبَ مَوْضِعَ يَدِكَ ، نَبْتَغِيْ بِذٰلِكَ الْبَرَكَةَ.

قَالَ: إِنِّيْ وَجَدْتُ فِيْهِ رِيْحَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَنَا رَجُلٌ أُنَاجِيْ ، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوْهُ.

قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ.

(سِيْرَةُ ابْنِ هِشَامٍ)

❋ ❋ ❋

---

(١) نَشَّفَ يُـنَشِّفُ تَنْشِيفاً: جَفَّفَ.

(٢) تَـيَـمَّمَ يَـتَـيَـمَّمُ: الشيء: تَوَخَّاه وتَعَمَّده.

(٦٠)

الإِمَـامُ مَالِكُ بْـنُ أَنَـسٍ

وُلِدَ الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَسَمِعَ الزُّهْرِيَّ[1] وَنَافِعاً مَوْلَىٰ ابْنِ عُمَرَ[2] ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ رَبِيْعَةَ الرَّأْيِ[3] ، وَقَالَ: قَلَّ رَجُلٌ كُنْتُ أَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَا مَاتَ حَتَّىٰ يجِيْئَنِيْ وَيَسْتَفْتِيَنِيْ[4] .

وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيْمٌ فِي الْعِلْمِ يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنَ الآفَاقِ ،

---

(١) هو ابن شهاب محمد الزهري. تابعيّ من أهل المدينة. أول من دوّن الحديث. نزل الشام واستقرَّ بها ، توفي سنة ١٢٤ هـ.

(٢) هو نافع بن عمر القرشي الجمحي المكي. حافظ للحديث ، كان محدث مكة المكرمة في زمانه ، وتوفي فيها سنة ١٦٩ هـ.

(٣) كان إماماً ، حافظاً ، فقيهاً ، مجتهداً ، بصيراً بالرأي ، وكان صاحب الفتاوى بالمدينة المنورة وعليه تفقه الإمام مالك ، توفي سنة ١٣٦ هـ.

(٤) اسْتَفْتَىٰ يَسْتَفْتِي اسْتِفْتَاءً: الرجلُ العالمَ في مَسْألةٍ: سَألَه رأيه فيها.

وَيَزْدَحِمُوْنَ[1] عَلَىٰ بَابِهِ لأَخْذِ الْحَدِيْثِ وَالْفِقْهِ كَازْدِحَامِهِمْ عَلَىٰ بَابِ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ النَّاسُ يَفْتَخِرُوْنَ بِالرِّوَايَةِ عَنْهُ ، وَكَانَ ذٰلِكَ شَرَفاً كَبِيْراً فِيْ عَصْرِهِ ، فَإِذَا قَالَ أَحَدٌ : حَدَّثَنِيْ مَالِكٌ ، رَفَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ .

وَكَانَ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ فِي الْفِقْهِ وَالْفَتْوَىٰ . قَالَ ابْنُ وَهبٍ : سَمِعْتُ مُنَادِياً يُنَادِيْ بِالْمَدِيْنَةِ : أَلَا لَا يُفْتِي النَّاسَ إِلَّا مَالِكُ بْنُ أَنسٍ ، وَابْنُ أَبِيْ ذِئْبٍ ، وَمِنَ الأَمْثَالِ السَّائِرَةِ : لَا يُفْتَىٰ وَمَالِكٌ فِي الْمَدِيْنَةِ .

وَكَانَ كَثِيْرَ الأَدَبِ ، شَدِيْدَ التَّعْظِيْمِ لِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ[2] وَلَبِسَ ثِيَاباً جُدَداً ، وَتَعَمَّمَ[3] وَقَعَدَ بِخُشُوْعٍ وَخُضُوْعٍ وَوَقَارٍ ، وَتَبَخَّرَ[4] بِالْعُوْدِ مِنْ أَوَّلِهِ فَلَا يَزَالُ يَتَبَخَّرُ إِلَىٰ فَرَاغِهِ ، وَقِيْلَ لَهُ فِيْ ذٰلِكَ ، فَقَالَ : أُحِبُّ أَنْ أُعَظِّمَ حَدِيْثَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، وَلَا أُحَدِّثَ بِهِ إِلَّا مُتَمَكِّناً عَلَىٰ طَهَارَةٍ ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُحَدِّثَ عَلَى الطَّرِيْقِ ، أَوْ

---

(١) ازْدَحَمَ يَزْدَحِمُ ازْدِحَاماً : الناسُ : تَضَايَقوا وتَدافَعوا بالمناكب .
(٢) تَطَيَّبَ يَتَطَيَّبُ تَطَيُّباً : الرجلُ : وضع على نفسه الطِّيب .
(٣) تَعَمَّمَ يَتَعَمَّمُ تَعَمُّماً : لَبِسَ العمامة .
(٤) تَبَخَّرَ يَتَبَخَّرُ تَبَخُّراً : الرجلُ بالعود أو البَخُور : تَطَيَّبَ .

مُسْتَعْجِلاً ، وَيَقُوْلُ: أُحِبُّ أَنْ أَتَفَهَّمَ مَا أُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ: كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ ، وَهُوَ يُحَدِّثُنَا ، فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ سِتَّ عَشَرَةَ مَرَّةً ، وَمَالِكٌ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ ، وَلاَ يَقْطَعُ الْحَدِيْثَ ، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ قَالَ: إِنَّمَا صَبَرْتُ إِجْلاَلاً لِلْحَدِيْثِ.

وَكَانَ لاَ يَرْكَبُ فِي الْمَدِيْنَةِ عَلَىٰ ضُعْفِهِ وَكِبَرِ سِنِّهِ ، وَيَقُوْلُ: لاَ أَرْكَبُ فِيْ مَدِيْنَةٍ فِيْهَا جُثَّةُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَدْفُوْنَةٌ.

وَكَانَ مَجْلِسُهُ مَجْلِسَ وَقَارٍ وَحِلْمٍ ، وَكَانَ رَجُلاً مَهِيْباً نَبِيْلاً ، لَيْسَ فِيْ مَجْلِسِهِ شَيءٌ مِنَ الْمِرَاءِ[1] وَاللَّغَطِ[2] ، وَلاَ رَفْعُ صَوْتٍ ، وَكَانَ الْغُرَبَاءُ يَسْأَلُوْنَهُ عَنِ الْحَدِيْثِ فَلاَ يُجِيْبُ إِلاَّ فِي الْحَدِيْثِ بَعْدَ الْحَدِيْثِ.

سَأَلَ هَارُوْنُ الرَّشِيْدُ مَالِكاً أَنْ يَأْتِيْ فَأَبَىٰ ، فَأَتَىٰ هَارُوْنُ مَالِكاً ، وَهُوَ فِيْ مَنْزِلِهِ ، وَمَعَهُ بَنُوْهُ ، وَسَأَلَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِم ، فَقَالَ: مَا قَرَأْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مُنْذُ زَمَانٍ ، وَإِنَّمَا يُقْرَأُ عَلَيَّ ، فَقَالَ هارون: أَخْرِجِ النَّاسَ حَتَّىٰ أَقْرَأَ أنا عليكَ ، فقال : إِذَا مُنِعَ الْعَامُّ لِبَعْضِ الْخَاصِّ لَمْ يَنْتَفِعِ الْخَاصُّ.

---

(١) المِرَاءُ: التَّكلُّفُ.

(٢) اللَّغَطُ جمع الأَلْغَاط: الصوت والجلبة.

وَدَخَلَ مَالِكٌ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَنْصُوْرٍ ، وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ ، إِذْ جَاءَ صَبِيٌّ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، فَقَالَ لِيْ : أَتَدْرِيْ مَنْ هٰذَا؟ فَقُلْتُ : لاَ! قَالَ : ابْنِيْ ، وَإِنَّمَا يَفْزَعُ مِنْ هَيْبَتِكَ .

وَفِيْ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمِئَةٍ ضُرِبَ مَالِكٌ سَبْعِيْنَ سُوْطاً لأَجْلِ فَتْوىً لَمْ تُوَافِقْ غَرَضَ السُّلْطَانِ ، فَغَضِبَ وَدَعَا بِهِ ، وَجَرَّدَهُ[1] وَضَرَبَهُ بِالسِّيَاطِ ، وَمُدَّتْ يَدُهُ حَتَّىٰ انْخَلَعَتْ كَتِفُهُ ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَ ذٰلِكَ الضَّرْبِ فِيْ عُلُوٍّ وَرِفْعَةٍ ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ السِّيَاطُ[2] حَلْياً حُلِّيَ بِهِ .

وَكِتَابُهُ الْمُوطَّأُ مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِ الْحَدِيْثِ ، وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَقْبُوْلَةِ فِي الإِسْلاَمِ ، رَزَقَكَ اللهُ قِرَاءَتَهُ ، وَالاِنْتِفَاعَ بِهِ ، وَسَيَكُوْنُ ذٰلِكَ (إِنْ شَاءَ اللهُ) فِيْ بِضْعِ سِنِيْنَ إِذا تَقَدَّمْتَ فِي الْعِلْمِ .

تُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمِئَةٍ .

* * *

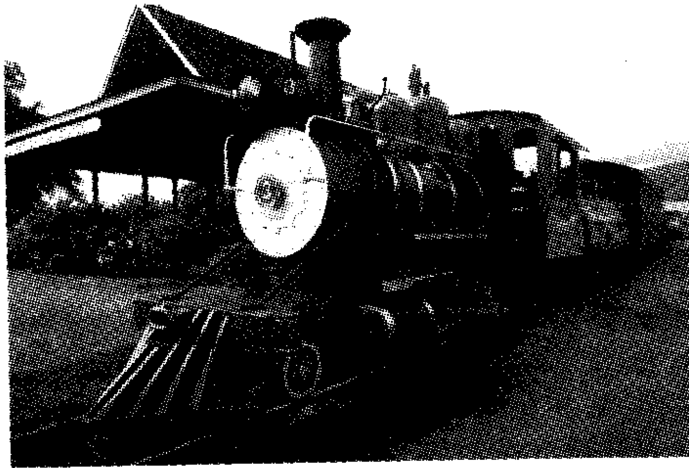
---

(١) جَرَّدَ يُجَرِّدُ تَجْرِيْداً : الرجلُ الفلانَ : عَرَّاه .
(٢) سَوْطٌ جمع سِيَاط : أداة من الجلد يضرب بها الإنسان أو الحيوان .

(٦١)

الْقَاطِـــرَةُ

(١)



ذَهَـبَ رَشِيْـدٌ مَـعَ أَبِيْـهِ سَعِيْدٍ إِلَـىٰ الْمَحَطَّـةِ يَسْتَقْبِـلُ أَخَـاهُ مَحْمُوْداً ، وَكَانَ قَادِماً مِنْ دِيُوْبَنْد[١] فِيْ مُسَامَحَةِ عِيْدِ الأَضْحَىٰ.

وَكَانَ الْقِطَارُ مُتَأَخِّراً ، فَأَخَذَ سَعِيْدٌ يَتَجَوَّلُ عَلَىٰ الْمَحَطَّةِ

(١) ديوبند: قرية من القرى التابعة لمدينة سهارنفور الواقعة في ولاية أترابرديش في الهند.

يُحَدِّثُ رَشِيْداً عَنِ الْقِطَارِ وَنَظَامِ الْمَحَطَّةِ ، وَانْتَقَلَ مَعَهُ إِلَىٰ رَصِيْفٍ آخَرَ.

وَكَانَ قِطَارٌ وَاقِفاً هُنَا تَصْفِرُ[1] قَاطِرَتُهُ[2] ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا بُخَارٌ كَثِيْفٌ[3] مُتَصَاعِدٌ.

قَالَ رَشِيْدٌ: حَدِّثْنِي الْيَوْمَ يَا أَبِيْ! عَنِ الْقَاطِرَةِ كَيْفَ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَكَيْفَ تُسْرِعُ فِي السَّيْرِ؟

قَالَ سَعِيْدٌ: لَقَدْ سَأَلْتَ بِهِ خَبِيْراً فَقَدْ كُنْتُ مُوظَّفاً فِي الْقِطَارِ ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْهَا فِيْ تَفْصِيْلٍ ، فَقُمْ بِجَانِبِيْ أَمَامَ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ وَلَاحِظْهَا.

أُنْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ الْقَاطِرَةِ تَرَهَا صُنِعَتْ مِنَ الْحَدِيْدِ ، وَلَهَا سِتُّ عَجَلَاتٍ تَسِيْرُ عَلَيْهَا وَهِيَ قَوِيَّةٌ جِدّاً كَأَنَّهَا عِفْرِيْتٌ مِنَ الْجِنِّ ، تَجُرُّ قِطَارَ البِضَاعةِ ، وَهُوَ طَوِيْلٌ وَثَقِيْلٌ جِدّاً ، وتَجُرُّ قِطَارَ الرُّكَّابِ وَفِيْهِ النَّاسُ وَأَثْقَالُهُمْ ، وَتَجُرُّ الْقِطَارَ السَّبَّاقَ ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْقُطُرِ يَقْطَعُ خَمْسَةً وَأَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ.

---

(١) صَفَرَ يَصْفِرُ صَفيراً: صَوَّت بصوت عالٍ.
(٢) قَاطِرَة جمع قَاطِرَات: آلة بخارية أو كهربائية تجرُّ عَرَبَاتٍ على سكك الحديد.
(٣) كَثِيْفٌ: غَلِيْظ.

وَالْقِطَارُ السَّرِيْعُ يَقْطَعُ نَحْوَ أَرْبَعِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ ، وَالْقِطَارُ الْوَقَّافُ يَقْطَعُ نَحْوَ ثَلاَثِيْنَ مِيْلاً فِي السَّاعَةِ ، تَجُرُّ الْقِطَارَ مِنْ أَقْصَىٰ الْهِنْدِ إِلَىٰ أَقْصَاهَا ، مَثَلاً مِنْ بَمْبَيْءَ[1] إِلَىٰ بِشَاوَرَ[2] ، وَمِنْ دِهْلِيْ[3] إِلَىٰ مَدْرَاسَ[4] .

وَقُوَّةُ هٰذِهِ الْقَاطِرَةِ إِنَّمَا هِيَ الْبُخَارُ الْحَقِيْرُ الَّذِيْ لاَ تَعْبأ[5] بِهِ ، وَلاَ تُحَاسِبُ لَهُ حِسَاباً ، وَقَدِ اهْتَدَىٰ «استيفنسن» مُخْتَرِعُ الْقِطَارِ إِلَىٰ قُوَّةِ هٰذَا الْبُخَارِ ، وَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ تَسْخِيْرِهِ وَالاِنْتِفَاعِ بِهِ فِي الأَغْرَاضِ ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ وَدِرَاسَتِهِ أَنَّهُ بِقُوَّتِهِ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ ، وَيَنْقُلُ الْجِبَالَ ، وَيَأْتِيْ بِالْعَجَائِبِ .

وَذٰلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ ، وَبَيْنَ الْعَامِيِّ وَالْمُكْتَشِفِ ، يَرَىٰ الأَوَّلُ كُلَّ شَيْءٍ فَلاَ يَرْفَعُ بِهِ رَأْساً ، وَلاَ يُلْقِيْ عَلَيْهِ بَالاً ، وَيَرَاهُ الثَّانِيْ فَيَعْرِفُ قِيْمَتَهُ وَيَجْتَهِدُ فِيْهِ ، حَتَّىٰ يُسَخِّرَهُ لِغَرَضِهِ .

* * *

---

(١) بَمْبَيء : من أكبر مدن الهند تقع في غربها .

(٢) بِشَاوَر : مدينة قديمة تقع في شمال باكستان .

(٣) دِهْلي : عاصمة الهند .

(٤) مَدْرَاس : مَرْفأ في جنوب شرقي الهند ، ومن أكبر مدنها .

(٥) لا تَعْبَأ به : لا تهتم به ولا تبالي .

(٦٢)

الْقَاطِــرَةُ

(٢)

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! إِلَىٰ هٰذَا الْمَوْقِدِ فِي الْقَاطِرَةِ ، يُلْقِيْ فِيْهِ الرَّجُلُ الْفَحْمَ الْحَجَرِيَّ ، وَفَوْقَ هٰذَا الْمَوْقِدِ حَوْضٌ مِنْ مَاءٍ مَتِيْنٌ جِدّاً وَفِيْهِ أَنَابِيْبُ عَدِيْدَةٌ يَسْخنُ هٰذَا الْمَاءُ بِالنَّارِ وَيَتَحَوَّلُ بُخَاراً ، وَيَنْتَقِلُ هٰذَا الْبُخَارُ إِلَىٰ الأَنَـابِيْبِ .

وَتَعَالَ مَعِيَ نَدْخُلْ فِي الْقَاطِرَةِ ، فَإِنَّ سَائِقَهَا مِنْ أَصْدِقَائِيْ ، وَهُنَا تَفْهَمُ تَرْكِيْبَ الْقَاطِرَةِ جَيِّداً .

انْظُرْ إِلَىٰ الأَنَابِيْبِ ، إِنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِهٰذِهِ الآلاَتِ الدَّقِيْقَةِ الَّتِيْ تُدِيْرُ عَجلاَتِ الْقَاطِرَةِ ، فَإِذَا اجْتَمَعَ هٰذَا الْبُخَارُ فِي الأَنَابِيْبِ دَفَعَ بِقُوَّتِهِ الآلاَتِ ، فَأَدَارَهَا وَبِدَوَرَانِهَا تَدُوْرُ الْعَجلاَتُ ، وَتَسِيْرُ الْقَاطِرَةُ .

وَهٰـذَا هُـوَ الْـوَقَّـادُ الَّـذِيْ يُـرَاقِـبُ النَّـارَ وَالْمَـاءَ ، وَيُشْـرِفُ

عَلَيْهِمَا ، وَهٰذَا صَدِيْقُنَا السَّائِقُ ، وَإِذَا كَانَتِ الْقَاطِرَةُ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَتُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ ، فَصَاحِبُنَا يَسُوْقُ الْقَاطِرَةَ ، فَهُوَ مِفْتَاحُ الْقِطَارِ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِيْ سَيْرِ الْقِطَارِ وَهُوَ يَسْهَرُ عَلَىٰ عَمَلِهِ ، وَيَقُوْمُ بِوَاجِبِهِ بِأَمَانَةٍ وَجِدٍّ ، وَكَذٰلِكَ أَمِيْنُ الْقِطَارِ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ مِنَ الرُّكَّابِ ، فَإِنَّهُ يُلَاحِظُ الطَّرِيْقَ وَيَلْحَظُ وُقُوْفَ الْقِطَارِ وَسَيْرَهُ ، وَالسَّائِقُ وَالْقَاطِرَةُ طَوْعُ إِشَارَتِهِ ، فَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ[1] الأَحْمَرَ وَقَفَ الْقِطَارُ ، وَإِذَا هَزَّ الْبَيْرَقَ الأَخْضَرَ تَحَرَّكَ الْقِطَارُ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ هٰذِهِ الآلَةِ الَّتِيْ فِيْ يَدِ السَّائِقِ هٰذِهِ . . . فَإِذَا رَفَعَهَا السَّائِقُ إِلَىٰ فَوْقُ ، انْدَفَعَ الْبُخَارُ وَسَارَتِ الْقَاطِرَةُ ، وَإِذَا ضَغَطَ[2] عَلَيْهَا سَكَنَ الْبُخَارُ وَهَدَأَتِ الْقَاطِرَةُ ، حِيْنَئِذٍ يَضْغَطُ السَّائِقُ عَلَىٰ آلَةٍ أُخْرَىٰ ، وَهِيَ هٰذِهِ وَتُسَمَّىٰ الْمِصَدَّ ، وَتَقِفُ الْقَاطِرَةُ مِنْ سَاعَتِهَا ، وَالْعَرَبَاتُ كُلُّهَا مُرَكَّبَةٌ بِالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِسَيْرِهَا ، وَتَقِفُ بِوُقُوْفِهَا.

وَهٰذَا هُوَ الْخَطُّ الْحَدِيْدِيُّ الَّذي يَسِيْرُ عَلَيْهِ الْقِطَارُ ، وَلَوْلَا هُوَ لَغَاصَ الْقِطَارُ فِي الأَرْضِ ، لأَنَّ التُّرْبَةَ لَا تَحْمِلُ ثِقْلَ الْقِطَارِ.

---

(١) البَيْرَق: جمع البَيَارق : العَلَم الكبير.
(٢) ضَغَطَ يَضْغَطُ ضَغْطاً: عليه (عليها) شَدَّدَ وضَيَّقَ.

هٰذِهِ هِيَ الْقَاطِرَةُ الَّتِيْ تَجُرُّ الْقِطَارَ ، وَهٰذَا هُوَ الْقِطَارُ الَّذِيْ يُوْصِلُ الرُّكَّابَ مِنْ دِيَارٍ إِلَىٰ دِيَارٍ ، وَيَحْمِلُ أَثْقَالَ النَّاسِ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ يَكُوْنُوْا بَالغيْه إلَّا بِشِقِّ الأَنْـفُسِ[1] .

انْظُرْ يَا رَشِيْدُ! كَيْفَ أَلْهَمَ اللهُ الإِنْسَانَ الْحِكْمَةَ وَالصِّنَاعَةَ ، وَرَزَقَهُ الْعَقْلَ الَّذِيْ يُسَخِّرُ بِهِ الْحَدِيْدَ وَالْبُخَارَ ، أَفَلَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَقُوْلَ إِذَا رَكِبْتَ الْقِطَارَ :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ .

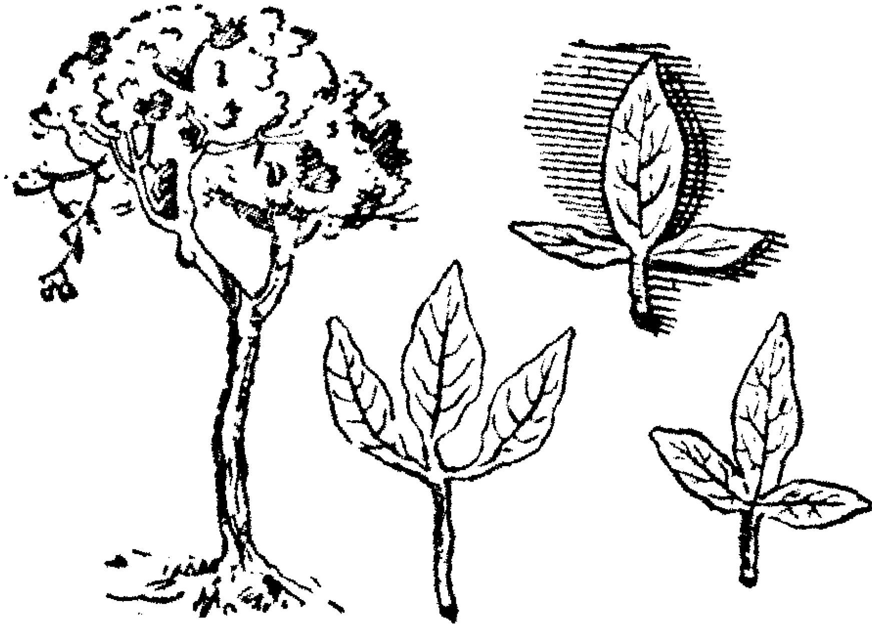
* * *

(١) بِشِقِّ الأَنْفُسِ : بالجُهْدِ والمَشَقَّة .

(٦٣)

جِسْمُ النَّبَاتِ

(١)



كَانَ أَمَامَ بَيْتِ عَبَّاسٍ حَدِيْقَةٌ فِيْهَا أَنْوَاعُ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ ، قَالَ لَهُ أَبُوْهُ عُمَرُ مَرَّةً فِيْ يَوْمِ عُطْلَةٍ: هَلْ رَأَيْتَ يَا عَبَّاسُ! حَدِيْقَةَ الدَّارِ؟

قَالَ عَبَّاسٌ: كَيْفَ لاَ يَا أَبِيْ! وَهِيَ حَدِيْقَةُ دَارِنَا؟ أَلْعَبُ فِيْهَا

كُلَّ يَوْمٍ وَأَتَـرَدَّدُ[١] إِلَيْهَا صَبَاحَ مَسَاءَ.

قَالَ عُمَرُ: مَا أَظُنُّكَ رَأَيْتَهَا! فَتَعَالَ مَعِيَ نَـتَـمَشَّ فِي الْحَدِيْقَةِ وَنَدْرُسُ النَّبَاتَ، فَإِنَّهُ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ، وَكِتَابٌ يَجِبُ أَنْ تُطَالِعَهُ.

خَرَجَ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ إِلَىٰ الْحَدِيْقَةِ، فَرَأَىٰ عَبَّاسٌ الْبُسْتَانِيَّ يُصْلِحُ قِطْعَةً مِنَ الأَرْضِ، وَيُنَحِّي[٢] الْحَجَرَ وَالْخَزَفَ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ وَالأَعْشَابَ، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ أَبَاهُ عَنْ ذٰلِكَ.

قَالَ عُمَرُ: الرَّجُلُ يُصْلِحُ الأَرْضَ وَيُهَيِّئُهَا[٣] لِغَرْسِ الأَشْجَارِ، فَإِذَا بَقِيَتِ الأَحْجَارُ وَالْخَزَفُ لَمْ يَثْبُتِ الْفَسِيْلُ[٤] فِي الأَرْضِ، وَلَـمْ تَمْتَـدَّ جُـذُوْرُهُ فِـيْ بَـاطِنِ[٥] الأَرْضِ، وَإِذَا تُـرِكَـتْ هٰـذِهِ الْحَشَائِشُ الشَّيْطَانِيَّةُ امْتَصَّتْ غِذَاءَ الْفَسِيْلِ وَذَوَى الْفَسِيْلُ، وَالْبُسْتَانِيُّ النَّاصِحُ الْمُجْتَهِدُ يَحْرُثُ الأَرْضَ كَمَا يَحْرُثُ الْفَلَّاحُ الْحَقْلَ، وَيُلْقِيْ فِيْهَا السَّمَادَ[٦] وَيَسْقِيْهَا كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّىٰ تُصْبِحَ

---

(١) تَـرَدَّدَ يَـتَرَدَّدُ: إلى المكان: اختلف إليه.
(٢) نَحَّىٰ يُنَحِّي تَنْحِيَة: الشيءَ: أَبْعَدَهُ وأَزَاله عن مكانه.
(٣) هَيَّأَ يُهَيِّئُ تَهْيِئَةً: الشيءَ: أعدَّه.
(٤) فَسِيْلَة جمع فَسِيْل وَفَسَائِل: غُصْن يُفْصَل للغرس.
(٥) بَاطِن الأرض: داخل الأرض.
(٦) السَّمَاد جمع الأَسْمِدة: مادة توضع في الأرض لإخصابها.

الأَرْضُ رِخْوَةً[1] كَرِيْمَةً ، تَقْبَلُ كُلَّ مَا يُلْقَى فِيْهَا .

ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ مَكَانٍ تَصِلُ إِلَيْهِ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ .

هُنَا قَاطَعَهُ عَبَّاسٌ وَقَالَ: وَهَلْ يَحْتَاجُ النَّبَاتُ أَيْضاً إِلَى الشَّمْسِ؟

قَالَ عُمَرُ: نَعَمْ! يَا عَبَّاسُ! فَالنَّبَاتُ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ يَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَاءِ .

وَاسْتَمَرَّ عُمَرُ فِيْ حَدِيْثِهِ «ثُمَّ يَغْرِسُ الْفَسَائِلَ فِيْ صَفٍّ وَيَتْرُكُ بَيْنَ فَسِيْلَيْنِ فُسْحَةً يُمْكِنُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَمْتَدَّ فِيْهَا ، وَلَا يُضَايِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً .

وَيَحْسُنُ أَنْ تَكُوْنَ الْفَسَائِلُ أَتْرَاباً فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا كَانَتْ ذَاتَ أَزْهَارٍ فَلِأَزْهَارِهَا مِيْعَادٌ وَاحِدٌ ، لِيَتِمَّ جَمَالُ كُلِّ صَفٍّ مِنْ صُفُوْفِهَا .

وَلَا يَسْتَرِيْحُ الْبُسْتَانِيُّ بَعْدَ ذٰلِكَ ، بَلْ يَسْهَرُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْفَسَائِلِ ، فَلَا يَزَالُ يَسْقِيْهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَيَقْلَعُ الْحَشَائِشَ ، وَيَعْزِقُ[2] الأَرْضَ حَوْلَهَا ، فَيَجْعَلُ بَاطِنَهَا ظَاهِرَهَا» .

---

(١) رِخْوَة: سهلة ليِّنة.

(٢) عَزَقَ يَعْزِقُ عَزْقاً: الأَرْضَ: شَقَّهَا.

هُنَا فَرَغَ الْبُسْتَانِيُّ مِنْ إِصْلَاحِ الأَرْضِ وَذَهَبَ يَنْقُلُ فَسِيْلاً ، فَتَبِعَهُ عُمَرُ وَعَبَّاسٌ ، وَوَقَفَا بِجَانِبِهِ.

❋ ❋ ❋

(٦٤)

جِسْمُ النَّبَاتِ

(٢)

حَفَرَ الْبُسْتَانِيُّ الأَرْضَ حَوْلَ الْفَسِيْلِ باحْتِرَاسٍ[١] ، وكَأَنَّهُ يَخَافُ شَيْئاً ، فَسَأَلَ عَبَّاسٌ وَالِدَهُ عَنْ ذٰلِكَ ، وَقَالَ: لِمَاذَا يَتَوَانَىٰ[٢] الْبُسْتَانِيُّ فِيْ شُغْلِهِ ، وَلاَ يُعَجِّلُ؟

قَالَ عُمَرُ: هُوَ يَخَافُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْضَ الْجُذُوْرِ فَيَضُرُّ بِالْفَسِيْلِ ، وَرُبَّمَا يَمُوْتُ ، لأَنَّ الْجُذُوْرَ لاَزِمَةٌ لِلشَّجَرَةِ وَبِهَا حَيَاتُهَا .

قَالَ عَبَّاسٌ: وَمَا فَائِدَةُ الْجُذُوْرِ وَمَا شُغْلُهَا حَتَّىٰ لاَ تَحْيَا الشَّجَرَةُ بِغَيْرِهَا .

---

(١) باحتِرَاس: بِحِيطة وَحَذَر.

(٢) تَوَانَىٰ يَتَوانَىٰ توانياً: تَأَخَّرَ وأَبْطَأَ.

قَالَ عُمَرُ: الـنَّـبَـاتُ إِنَّمَا يَثْبُتُ فِي الأَرْضِ بِالْجُذُوْرِ ، فَهِيَ الَّتِيْ تَمْتَصُّ[1] الْغِذَاءَ مِنَ الأَرْضِ ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ ، أَلَا تَرَاهَا مُمْتَدَّةً مُتَشَعِّبَةً فِيْ بَاطِنِ الأَرْضِ ، كَأَنَّهَا جَوَاسِيْسُ وَعُيُوْنٌ قَدِ انْبَثَّتْ لِعَمَلِهَا.

عَبَّاسٌ: وَمَا هِيَ الأَجْزَاءُ اللَّازِمَةُ لِلنَّبَاتِ غَيْرُ الْجُذُوْرِ؟

قَالَ عُمَرُ: مِنَ الأَعْضَاءِ اللَّازِمَةِ لِلنَّبَاتِ السَّاقُ ، وَهُوَ الْجُزْءُ الْبَارِزُ عَلَىٰ الأَرْضِ ، وَهُوَ الَّذِيْ يَحْمِلُ الْفُرُوْعَ وَالأَوْرَاقَ ، وَيَسِيْلُ فِيه غِذَاءُ الشَّجَرَةِ ، وَيَنْتَقِلُ إِلَىٰ أَجْزَائِهَا.

وَالآخَرُ اللَّازِمُ لِلنَّبَاتِ الأَوْرَاقُ وَبِهَا يَتَنَفَّسُ النَّبَاتُ ، وَيَأْخُذُ مِنَ الْهَوَاءِ مَا يُصْلِحُ بِهِ حَيَاتَهُ.

وَهٰذِهِ الثَّلَاثَةُ: الْجُذُوْرُ ، وَالسَّاقُ ، وَالأَوْرَاقُ ، هِيَ أَعْضَاءُ النَّبَاتِ اللَّازِمَةُ لِحَيَاتِهِ وَنَمَائِهِ ، وَيَكْفِيْكَ يَا عَبَّاسُ! هٰذَا الدَّرْسُ الأَوَّلُ عَنِ النَّبَاتِ.

قَالَ عَبَّاسٌ: عَجَباً يَا أَبِي! مَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ قَبْلُ أَنَّ النَّبَاتَ جِسْمٌ حَيٌّ نَامٍ ، لَهُ تَرْكِيْبٌ دَقِيْقٌ.

قَالَ عُمَرُ: وَكَذٰلِكَ كُلُّ شَيْءٍ ، فَإِذَا دَرَسْتَهُ كَكِتَابٍ تَعَجَّبْتَ

---

(١) امْتَصَّ يَمْتَصُّ امْتِصَاصاً: الشيءَ: رَشَفَهُ وَشَرِبَهُ مَعَ جَذْبِ نَفَسٍ.

مِنْ صُنْعِ اللهِ الَّذِيْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ فِيْ كُلِّ شَيْءٍ آيَةً للهِ ، وَفِيْ ذٰلِكَ يَقُوْلُ الشَّاعِرُ:

وَللهِ فِيْ كُلِّ تَحْرِيْكَةٍ   وَفِيْ كُلِّ تَسْكِيْنَةٍ شَاهِدُ
وَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ[1]   تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

* * *

(١) آيَة جـ آيات وآي: عَلاَمة.

(٦٥)

الْـبـبَّـغَــاءُ

أَلِفْتُهَــا[١] صَبِيْحَــةً مَلِيْحَــةْ نَــاطِقَــةً بَــاللُّغَــةِ الْفَصِيْحَــةْ

عُدَّتْ مِنَ الأَطْيَارِ وَاللِّسَانُ يُــوْهِمُنِــيْ[٢] بِــأَنَّهَــا إِنْسَــانُ

تُنْهِيْ[٣] إِلَىٰ صَاحِبِهَا الأَخْبَارَا وَتَكْشِــفُ الأَسْــرَارَ وَالأَسْتَــارَا

بَكْمَــاءُ[٤] إِلاَّ أَنَّهَــا سَمِيْعَــةْ تُعِيْــدُ مَــا تَسْمَعُــهُ طَبِيْعَــةْ

زَارَتْكَ مِنْ بِلاَدِهَا الْبَعِيْدَةْ وَاسْتَوْطَنَتْ عِندَكَ كَالْقَعِيْدَةْ[٥]

---

(١) أَلِفَ يَأْلَفُ إِلْفاً: الرجلُ فلاناً: أَنِسَ به وأَحَبَّه.

(٢) أَوْهَمَ يُوْهِمُ إِيْهَاماً: أَوْهَمَ الرجلُ الشيءَ: أَوْقَعَهُ في الوَهْم (والْوَهْمُ ما يقع في الذِّهنِ من الخَاطِرِ).

(٣) أَنْهَىٰ يُنْهِي إِنْهاءً الشيءَ: أَوْصَلَهُ وَأَبْلَغَهُ.

(٤) بَكْمَاءَ (مؤنث) أَبْكَمُ (مذكر) جمعها بُكْمٌ: عاجِزٌ عن الكلام، أَخْرَس.

(٥) الْقَعِيْدَة: المُجَالِسَة.

ضَيْفٌ قِرَاهُ[1] الْجَوْزُ وَالأَرُزُّ   وَالضَّيْـفُ فِـيْ إِتْيَـانِـهِ يُعَـزُّ
تَـرَاهُ فِـيْ مِنْقَـارِهِ الـرَّقِيْـقِ   كَلُـؤْلُـوءٍ يَلْقُـطُ[2] بِـالْعَقِيْـقِ[3]
تَنْظُرُ مِنْ طَرْفَيْنِ كَالْفَصَّيْنِ[4]   فِي النُّوْرِ وَالظُّلْمَةِ بَصَّاصَيْنِ[5]
خَرِيْدَةٌ[6] خُدُوْرُهَا[7] الأَقْفَاصُ   لَيْسَ لَهَا مِنْ حَبْسِهَا خَلاَصُ
تَحْبِسُهَـا وَمَـالَهَـا مِـنْ ذَنْـبِ   وَإِنَّمَـــا ذَاكَ لِفَـــرطِ الْحُـــبِّ

(أَبُوْ إِسْحاقَ الصَّابِيُّ)

* * *

(١) قِرَىٰ: ما يُقَدَّم إلى الضَّيْفِ من الطَّعام.
(٢) لَقَطَ يَلْقُطُ لَقْطاً: الشيءَ: أَخَذَهُ مِن الأرض.
(٣) العَقِيْق: حجر كريم أحمر.
(٤) الفَصُّ جمع الفُصُوص: مَا يُرَكَّبُ في الخاتِم من الحجارة الكريمة وغيرها.
(٥) بَصَّاصٌ: لامِعٌ وَمُتَلألئ.
(٦) خُرَيْدَةٌ جمع خَرَائِد: لُؤلُؤة لم تُثْقَب.
(٧) خِدْرٌ جمع خُـدُوْر: سِتْرٌ يُمَدُّ ليحجب ما وراءه، وستارة.

(٦٦)

الْحَجَّاجُ وَالْفِتْيَةُ

أَمَرَ الْحَجَّاجُ صَاحِبَ حَرَسِهِ أَنْ يَطُوْفَ لَيْلاً ، فَمَنْ رَآهُ بَعْدَ الْعِشَاءِ سَكْرَانَ ضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَطَافَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِيْ فَوَجَدَ ثَلاَثَةَ فِتْيَانٍ يَتَمَايَلُوْنَ[1] ، وَعَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ[2] السُّكْرِ ، فَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْغِلْمَانُ وَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ الْحَرَسِ:

مَنْ أَنْتُمْ حَتَّىٰ خَالَفْتُمْ أَمْرَ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ ، وَخَرَجْتُمْ فِيْ مِثْلِ هٰذَا الْوَقْتِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

أَنَا ابْنُ مَنْ دَانَتِ[3] الرِّقَابُ لَهُ مِنْ بَيْنِ مَخْزُوْمِهَا وَهَاشِمِهَا
تَأْتِيْهِ بِالرَّغْمِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ[4] يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا

---

(١) تَمَايَلَ يَتَمَايَلُ تَمَايُلاً: الرجلُ في مشْيَتِهِ: تَبَخْتَرَ.
(٢) أَمَارَة جمع أَمَارَات: عَلاَمَة.
(٣) دَانَ يَدِيْنُ دِيْناً وَدِيَانَةً: الرجلُ لفلانٍ: خضعَ وذَلَّ.
(٤) صَاغِرَة: رَاضِيَة بالذلِّ والهَوَانِ.

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ مِنْ أَقَارِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَقَالَ:

أَنَا ابْنُ مَنْ لا تَنْزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْماً فَسَوْفَ تَعُوْدُ

تَرَىٰ النَّاسَ أَفْوَاجاً إِلى ضَوْءِ نَارِهِ فَمِنْهُمْ قِيَامٌ حَوْلَهَا وَقُعُوْدُ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْرَفِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ قَالَ لِلآخَرِ: وَأَنْتَ مَنْ تَكُوْنُ؟ فَأَنْشَدَ قَائِلاً:

أَنَا ابْنُ مَنْ خَاضَ[1] الصُّفُوْفَ بِعَزْمِهِ

وقَوَّمَهَا[2] بِالسَّيْفِ حَتَّىٰ اسْتَقَامَتِ

رِكَابَاهُ لَا تَنْفَكُّ رِجْلَاهُ مِنْهُمَا

إِذَا الْخَيْلُ فِيْ يَوْمِ الْكَرِيْهَةِ وَلَّتِ

فَأَمْسَكَ عَنْهُ وَقَالَ: لَعَلَّهُ ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ، وَاحْتَفَظَ بِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ رَفَعَ أَمْرَهُمْ إِلَىٰ الأَمِيْرِ، فَأَحْضَرَهُمْ وَكَشَفَ عَنْ حَالِهِمْ، فَإِذَا الأَوَّلُ ابْنُ حَجَّام، وَالثَّانِي ابْنُ خُضَرِيٍّ، وَالثَّالِثُ ابْنُ حَائِكٍ[3]، فَتَعَجَّبَ مِنْ فَصَاحَتِهِمْ، وَقَالَ

---

(١) خَاضَ يَخُوْضُ خَوْضاً: الرجلُ الصُّفوفَ: دَخَلَها وَمَشَىٰ فِيْها.

(٢) قَوَّمَ يُقَوِّمُ تَقْوِيماً: الرجلُ الصُّفوفَ: سَوَّاها وَعَدَّلَها.

(٣) حائك جمع حائكين: ناسِجٌ (من حرفته الحِيَاكة).

لِجُلَسَائِهِ: عَلِّمُوْا أَوْلَادَكُمْ الأَدَبَ ، فَوَاللهِ لَوْلَا فَصَاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ.



(٦٧)

أَنَـا تُــرَابٌ

أَنَا تُرَابٌ حَقِيْرٌ يَطَؤُنِي[1] النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ وَنِعَالِهِمْ، وَيَضْرِبُوْنَ بِيْ مَثَلاً فِي الْحقَارَةِ والذُّلِّ.

النَّاسُ يَنْتَفِعُوْنَ بِيْ فِيْ كُلِّ سَاعَةٍ ، وَفِيْ كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ ، ثُمَّ يَحْتَقِرُوْنَنِيْ وَيَهْجُوْنَنِيْ[2] كَالشَّعِيْرِ يُؤْكَلُ وَيُذَمُّ.

فَفِيْ مَنَاكِبِيْ يَـمْشِي النَّاسُ ، وَعَلَىٰ ظَـهْرِيْ يَـبْـنُوْنَ بُـيُوْتَـاً وَمَبَانِيَ عَظِيْمَـةً ، وَمِنْ بَطْنِيْ تَخْرُجُ لِلنَّاسِ حُبُـوْبٌ يَأْكُلُهَا النَّاسُ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْـتُوْنَ والرُّمَّانُ ، وَالنَّخْلُ وَالزَّرْعُ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ.

وَمِنْ بَطْنِيْ يَخْرُجُ ذٰلِكَ الْقُطْنُ الَّذِيْ بِهِ لِبَاسُكُمْ وَكِسْوَتُكُمْ فِي

---

(١) وَطِىءَ يَطَأُ وَطْئاً: الرجلُ الشيءَ برجله: دَاسَهُ.

(٢) هَجَا يَهْجُوْ هَجْواً وَهِجَاءً: الرجلُ فلاناً: عَدَّدَ معايبه وذَمَّه.

الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ ، وَسَرَابِيْلُ[1] تَقِيْكُمُ[2] الْحَرَّ.

وَفِيْ لِبَاسِ الْحَرِيْرِ أَيْضاً يَرْجِعُ إِلَيَّ الْفَضْلُ[3] فَإِنَّ دُوْدَةَ الْقَزِّ[4] تَتَغَذّىٰ مِنْ وَرَقِ التُّوْتِ ، وَمِنِّي تَتَغذَّىٰ شَجَرَةُ التُّوْتِ ، وَعَلَيَّ تَنْمُوْ وَتَعِيْشُ ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَحْفِرُوْنَ الْبِئْرَ الَّتِيْ تَشْرَبُوْنَ مَاءَهَا ، وَعَلَىٰ ظَهْرِيْ تَجْرِيْ الأَنْهَارُ الَّتِيْ تَسْقِيْكُمْ ، وَتَسْقِيْ زُرُوْعَكُمْ.

وَمِنَ الطِّيْنِ يَبْنِي الْفَخَّارِيُّ الأَوَانِيَ وَالظُّرُوْفَ ، الَّتِيْ تَأْكُلُوْنَ فِيْهَا وَتَشْرَبُوْنَ ، وَاللُّعَبُ وَالدُّمَىٰ[5] الَّتِيْ يَلْعَبُ بِهَا الأَطْفَالُ.

وَهَلْ تُصَدِّقُوْنَ إِذَا أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنِّيْ مَادَّةُ هٰذَا الْكِتَابِ الَّذِيْ تَقْرَؤُوْنَهُ ، وَمَادَّةُ كُلِّ كِتَابٍ وَصَحِيْفَةٍ ، فَإِنَّ مَادَّةَ الْوَرَقِ الْحَشِيْشُ الَّذِيْ يَنْبُتُ فِي الأَرْضِ ، فَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ عَالِمٍ وَطَالِبٍ ، وَلِيَ مِنَّةٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ عَلَيْهِ مِنَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّيْنِ.

---

(١) سِرْبَالٌ جمع سَرَابِيْل: كُلُّ مَا يُلبسُ من قميص أو دِرْع ونحوهما.
(٢) وَقَىٰ يَقِي وِقَايَةً: (وَقَاهُ السِّرْبَالُ الحُرَّ: صَانَهُ وَحَمَاه من الحرِّ).
(٣) يَرْجِعُ إِلَيَّ الفَضْلُ: يعود.
(٤) القَزُّ: حريرٌ طبيعي يَخْرُجُ من دود الحرير.
(٥) دُمْيَة جمع دُمىً: تِمثال صغير.

ومِنْ بَطْنِي يَخْرُجُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَالنُّحَاسُ وَالْحَدِيْدُ ، الَّذِيْ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ[١] وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَالزَّيْتُ الَّذِيْ يُضِيءُ وَالْفَحْمُ الْحَجَرِيُّ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ الْقَاطِرَةُ ، وَالْبِتْرَوْلَ الَّذِيْ تَسِيْرُ بِهِ السَّيَّارَاتُ وَالطَّائِرَاتُ .

إِنَّكُمْ تُفْسِدُوْنَ أَطْيَبَ الأَشْيَاءِ ، فَكُلُّ مَا تَلَبَّسَ بِكُمْ فَسَدَتْ رَائِحَتُهُ ، وَذَهَبَتْ نَضَارَتُه[٢] ، وَأَنَا أُعِيْدُهُ غَضّاً طَرِيّاً[٣] ، وَبِهٰذَا السَّمَادِ الَّذِيْ تُلْقُوْنَهُ فِي الْحُقُوْلِ وَالْفَسَائِلِ أُنْبِتُ لَكُمْ حَبّاً صَحِيْحاً ، وَفَاكِهَةً لَذِيْذَةً ، وَزُهُوْراً جَمِيْلَةً .

أَنَا أَمِيْنُ أَجْسَادِ الأَنْبِيَاءِ ، أَنَا مَرْقَدُ[٤] الشُّهَدَاءِ ، أَنَا مُسْتَوْدَعُ الأَوْلِيَاءِ ، أَنَا مَضْجَعُ الْعُلَمَاءِ والصُّلَحَاءِ ، أَنَا مَدْفَنُ الأُمَّهَاتِ وَالآبَاءِ ، فَلاَ تَمْشُوْا عَلَيَّ مَرَحاً ، وَاذْكُرُوْا قَوْلَ صَاحِبِكُمْ :

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيْمَ الـ
أرضِ إِلاَّ مِنْ هٰذِهِ الأَجْسَادِ

---

(١) بَأْسٌ شديد : قوَّة شديدة .

(٢) نَضَارة وَنَضَارٌ : الخالِص مِنْ كلِّ شيءٍ .

(٣) غضّاً طَرِيّاً : نَاعِماً .

(٤) مَرْقَدٌ جمع مرَاقِد : قَبْرٌ .

وَقَبِيـــحٌ بِنَـــا وَإِنْ قَـــدُمَ الْعَهْـ
ـــدُ هَـــوَانُ الآبَـــاءِ وَالأَجْـــدَادِ
سِرْ إِنِ اسْتَطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْداً[1]
لا اخْتِيَالاً[2] عَلَى رُفَاتِ[3] الْـعِبَـادِ

* * *

---

(١) رُوَيْداً: مَهْلاً أو أَمْهِلْ.
(٢) لا اخْتِيَالاً: لا تكبُّراً وتمايلاً في المشي.
(٣) رُفاتٌ: حُطَام وَفُتَاتٌ مِن كل ما تكسر واندق.

(٦٨)

السُّلْطَانُ مَحْمُوْد بْـنُ مُحَمَّدٍ الْـغُجْرَاتِـي

السُّلْطَانُ الْعَادِلُ الْمُجَاهِدُ ، أَبُوْ الْفَتْحِ سَيْفُ الدِّيْنِ مَحْمُوْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُجْرَاتِيُّ ، كَانَ مِنْ خِيَارِ[1] السَّلَاطِيْنِ ، وَلِدَ بِغُجْرَاتَ[2] فِيْ عَاشِرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ٨٤٩ هـ وَقَامَ بِالْمُلْكِ بَعْدَ دَاوُدَ شَاهْ سَنَةَ ٨٦٢ هـ وَكَانَ يَوْماً مَشْهُوْداً .

اسْتَقَلَّ بِالْمُلْكِ خَمْساً وَخَمْسِيْنَ سَنَةً ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ الْجِهَادِ ، وَوَسَّعَ حُدُوْدَ مُلْكِهِ إِلَىٰ مَالْوَهْ[3] ، وَإِلَىٰ بِلَادِ السِّنْدِ ، وَلٰكِنَّهُ فِيْ تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيْلَةِ لَمْ يَطْمَحْ إِلَىٰ بِلَادِ

---

(١) خَيْر جمع خِيَار : حَسَن لذاته أو ما يحققه من نفع أو سعادة .

(٢) غجرات : ولاية تقع في شمال غربي الهند قرب البحر العربي ، كانت مركزاً فنياً هاماً في القرون الوسطى .

(٣) مَالْوَهْ : ولاية قديمة تقع الآن في ولاية مادهيابرديش في الهند ، كانت مركزاً ثقافياً فنياً كبيراً في القرن العاشر الميلادي .

الْمُسْلِمِيْنَ وَلَمْ يَسْتَشْرِفْ[1] لَهَا ، وَإِذَا اسْتَوْلَىٰ الْقَوِيُّ مِنْهُمْ عَلَىٰ الضَّعِيْفِ قَامَ بِنُصْرَةِ الضَّعِيْفِ ، وَكَانَ قَائِماً بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ، يُنَفِّذُ أَمْرَ الشَّرْعِ فِي السِّيَاسَةِ ، وَيُمْضِيْ حُكْمَ الْقِصَاصِ ، وَلاَ يَمْنَعُ كَوْنُ أَحَدٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلْكِ الْخَاصَّةِ بِهِ أَلاَّ يَعْمَلَ بِالشَّرِيْعَةِ.

وَمِنْ مَكَارِمِهِ[2] قِيَامُهُ بِتَعْمِيْرِ الْبِلاَدِ وَتَأْسِيْسِ الْمَسَاجِدِ ، وَالْمَدَارِسِ وَالزَّوَايَا ، وَتَكْثِيْرِ الزِّرَاعَةِ وَغَرْسِ الأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ ، وَبِنَاءِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِيْنِ ، وَتَحْرِيْض النَّاسِ عَلَىٰ ذٰلِكَ ، وَإِعَانَتِهِمْ بِحَفْرِ الآبَارِ وَإِجْرَاءِ الْعُيُوْنِ ، وَلِذٰلِكَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ إِقْبالاً كُلِّياً[3] ، وَوَفَدَ عَلَيْهِ الْبَنَّاؤُوْنَ وَالْمُهَنْدِسُوْنَ وَأَهْلُ الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْ بِلاَدِ الْعَجَمِ ، فَقَامُوْا بِحِرَفِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ، فَصَارَتِ غُجْرَاتُ رِيَاضاً[4] مُخْضَرَّةً بِكَثْرَةِ الْحِيَاضِ وَالآبَارِ ، وَالْحَدَائِقِ وَالزُّرُوْعِ وَالْفَوَاكِهِ الطَّيِّبَةِ ، وَصَارَتْ بِلاَدُ كُجْرَاتَ مَتْجَرَةً تُجْلَبُ مِنْهَا الثِّيَابُ الرَفِيْعَةُ إِلَىٰ بِلاَدٍ أُخْرَىٰ ، وَذٰلِكَ كُلُّهُ بِمَيْلِ سُلْطَانِهَا

---

(١) اسْتَشْرَفَ يَسْتَشرِف : الرَّجلُ الشيءَ: رَفَعَ بَصَرَهُ يَنْظر إليه.
(٢) مَكْرِمَة جمع مَكَارِم: فعل الخَيْر.
(٣) إقْبالاً كلياً: إقبالاً تامّاً.
(٤) رَوْضَة جمع رِيَاض وَرَوْضات: أرض ذات خضرة وماء.

مَحْمُوْدٍ شَاهْ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ بِهِ الْمُلْكُ وَالدَّوْلَةُ ، وَيَـتَـرَفَّـهُ بِهِ رَعَايَاهُ.

وَمِنْ مَكَارِمِهِ قِيَامُهُ بِتَرْبِيَةِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ لِمَا كَانَ مَجْبُوْلاً عَلَىٰ حُبِّ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ ، فَاجْتَمَعَ فِيْ حَضْرَتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنْ أَفَاضِلِ الْعَـرَبِ ، حَتَّـىٰ صَـارَتْ بِـلاَدُ كُجْـرَاتَ عَـامِـرَةً آهِلَـةً بِالْعُلَمَاءِ ، وَوَفَدَ عَلَيْهِ الْمُحَدِّثُوْنَ مِنْ بِلاَدِ الْعَرَبِ ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَىٰ الْحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ ، فَـتَشَابَهَتْ غُجْرَاتُ بِالْيمنِ الْمَيْمُوْنِ ، وَفَاقَتْ سَائِرَ بِلاَدِ الْهِنْدِ فِيْ ذٰلِكَ.

وَكَانَ غَايَةً فِي الْعِفَّةِ وَالْحَيَاءِ ، حَسَنَ الأَخْلاَقِ ، عَظِيْم الْهِمَّةِ ، كَرِيْمَ السَّجِيَّةِ ، شَرِيْفَ النَّفْسِ ، كَثِيْرَ الْبِرِّ وَالإِحْسَانِ ، أَطَالَ الْمُؤَرِّخُوْنَ فِيْ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ.

فِيْ سَنَةِ ٩١٦ هـ تَـوَجَّهَ إِلَىٰ نَهْرِ وَالَهْ بَـتَنْ[١] ، وَزَارَ أَئِمَّـةَ الدِّيْنِ بِهَا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ، وَعَقَدَ مَجْلِساً خَاصّاً لِمُذَاكَرَةِ التَّفْسِيْرِ وَالْحَدِيْثِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْجَوَائِزِ ، وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْوَظَائِفِ ، وَالْتَمَسَ الدُّعَاءَ ، وَكَانَ أَنْشَأَ مَضْجَعَهُ فِيْ جِوَارِ قَبْرِ مَوْلاَنَا الشَّيْخ أَحْمَدَ فِيْ سَرْكَهِيْجَ[٢] ، يَتَعَهَّدُهُ أَحْيَاناً ، وَقَبْلَ وَفَاتِهِ بِأَيَّامٍ فَتَحَ

---

(١) إحدى مدن ولاية غُجْرَات.

(٢) إحدى مدن ولاية غُجْرَات.

الْقَبْرَ وَجَلَسَ عِنْدَهُ وَقَالَ: اللهُمَّ إِنَّ هٰذَا أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَسَهِّلْهُ وَاجْعَلْهُ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ مَلأَهُ فِضَّةً وَتَصَدَّقَ بِهَا.

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَصْرَ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ ثَانِيَ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ٩١٧ هـ وَلَهُ تِسْعٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةً وَمُدَّةُ سَلْطَنَتِهِ خَمْسٌ وَخَمْسُوْنَ سَنَةً.

(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)

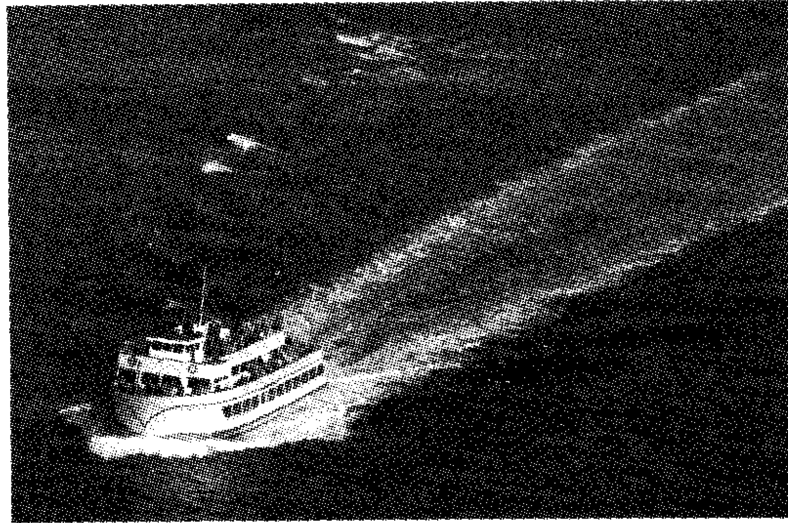
للعلامة عبد الحي الحسني



(٦٩)

الْبَاخِرَةُ

(١)



كَانَ النَّاسُ فِيْ قَدِيْمِ الزَّمَانِ يُسَافِرُوْنَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ عَلَىٰ الإِبِلِ وَالْبِغَالِ ، وَعَجَلاَتِ الْخَيْلِ وَعَجَلاَتِ الثِّيْرَانِ ، فَتَرَاهَا غَادِيَةً رَائِحَةً[١] عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ وَالشَّوَارِعِ تَحْمِلُ الرُّكَّابَ وَالْبَضَائِعَ .

---

(١) غادِيةً ورائحةً: ذاهبةً وآيبةً.

وَكَانَ النَّاسُ يَخَافُوْنَ السَّفَرَ فِي الْبِحَارِ وَيَتَحَامَوْنَهُ[1] ، وَلٰكِنْ أَلْجَأَتْهُمُ الضَّرُوْرَةُ إِلَىٰ السَّفَرِ فِيْهَا لأَنَّهُ يَحْمِلُ الأَثْقَالَ الْعَظِيْمَةَ وَلاَ يُكَلِّفُ نَفَقَةً ، فَوَصَلُوْا الأَنْهَارَ وَالْبُحَيْرَاتِ بِالتُّرَعِ ، وَصَارُوْا يُسَافِرُوْنَ فِيْهَا عَلَىٰ السُّفُنِ الشِّرَاعِيَّةِ ، وَيَنْقُلُوْنَ بَضَائِعَهُمُ التِّجَارِيَّةَ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ بَعِيْدٍ .

وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ ثَلاَثَةَ أَمْيَالٍ فِيْ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَتْ هٰذِهِ السُّفُنُ تَحْتَ حُكْمِ الرِّيَاحِ ، فَإِنْ وَافَقَتْ وَصَلَتِ السَّفِيْنَةُ فِيْ وَقْتٍ قَرِيْبٍ ، وَإِنْ عَارَضَتْ وَقَفَتْ أَسَابِيْعَ وَشُهُوْراً ، وَإِنْ عَانَدَتْ[2] صَدَمَتْهَا بِصَخْرَةٍ فَكَسَرَتْهَا ، أَوْ قَلَبَتْهَا ، وَهَلَكَ الرُّكَّابُ وَغَرِقَتِ الْبَضَائِعُ ، وَكَانَ هٰذَا يَقَعُ كَثِيراً حَتَّىٰ ذَهَبَ مَثَلاً ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّىٰ الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ

تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِيْ السُّفُنُ

وَكَانَ السَّفَرُ خَطِراً لا يَدْرِيْ الإِنْسَانُ أَيَصِلُ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ أَمْ يَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ ، فَكَانَ الْوَاحِدُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ فِيْ سَفِيْنَةٍ شِرَاعِيَّةٍ أَوْصَىٰ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ بِدُيُوْنِهِ وَبِمَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ

---

(١) تَحَامَىٰ يَتَحَامَىٰ تَحَامِياً : الرجلُ شيئاً : تَجَنَّبَه .

(٢) عَانَدَ يُعَانِدُ مُعَاندةً : عَارَضَ .

لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُوْلَ: إِنَّهُ يَصِلُ فِيْ شَهْرٍ أَوْ عَامٍ ، فَإِنَّهُ يُسَافِرُ فِيْ ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ ، وَكَانَ دُوْداً عَلَىٰ عُوْدٍ ، لاَ يَدْرِيْ أَيَمُوْتُ فِي الطَّرِيْقِ أَمْ يَصِلُ سَالِمَاً وَيَعُوْدُ.

وَكَانَ النَّاسُ رَغْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ يُخَاطِرُوْنَ[1] بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ يُسَافِرُوْنَ لِلْحَجِّ مِنْ كُلِّ بِلاَدٍ ، وَلاَ يَمْنَعُهُمْ خَطَرٌ أَوْ خَوْفٌ مِنَ السَّفَرِ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ ، وَأَدَاءِ فَرِيْضَةِ الْحَجِّ ، فَكَانَ الْمُسْلِمُوْنَ من الْهِنْدِ ، وَالصِّيْنِ ، وَجَزَائِرِ بَحْرِ الْهِنْدِ ، وَكَذٰلِكَ مِنْ مَرَّاكِش وَبِلاَدِ الأَنْدَلُسِ يُسَافِرُوْنَ كُلَّ عَامٍ لِلْحَجِّ ، وَقَدْ يَسْتَغْرِقُ سَفَرُهُمْ عاماً كَامِلاً أَوْ أَكْثَرَ.

وكَانَ الْجَوَّابُوْنَ[2] يَسِيْحُوْنَ فِي الأَرْضِ ، وَيَرْكَبُوْنَ الْبَحْرَ مِنَ الْمَغْرِبِ الأَقْصَىٰ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ الأَقْصَىٰ ، وَكَانَ الْعَالَمُ الإِسْلاَمِيُّ كَبَيْتٍ وَاحِدٍ ، وَالْمُسْلِمُوْنَ كَأُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، يَنَالُ الْجَوَّابُ فِي السَّفَرِ كُلَّ مَا يَجِدُهُ فِي الْوَطَنِ.

أَهْلاً بِأَهْلٍ وَجِيْرَاناً بِجِيْرَانٍ.

وَقَدْ سَافَرَ ابْنُ بَطُوْطَةَ الْمَغْرِبِيُّ ، وَابْنُ جُبَيْرٍ الأَنْدلُسِيُّ ، وَسُلَيْمَانُ التَّاجِرُ ، إِلَىٰ مُعْظَمِ الْمَعْمُوْرَةِ بِهٰذِهِ السُّفُنِ.

---

(١) خاطَرَ يُخَاطِرُ مُخَاطرةً: الرجلُ بنفسِه عَرَّضَها للهلاك.

(٢) الجوَّاب جمع الجوَّابين: السَّيَّاح.

(٧٠)

الْبَاخِرَةُ

(٢)



مَضَىٰ عَلَىٰ ذٰلِكَ قُرُوْنٌ ، ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يُفَكِّرُوْنَ ، وَيَخْتَرِعُوْنَ حَتَّىٰ تَوَصَّلُوْا إِلَىٰ سَفِيْنَةٍ تَسِيْرُ بِالْبُخَارِ ، وَكَانَ ذٰلِكَ بِالتَّدْرِيْجِ[1] ، وَفِيْ عِدَّةِ قُرُوْنٍ.

---

(١) بالتدريْجِ : قليلاً قليلاً.

كَانَتِ السُّفُنُ الشِّرَاعِيَّةُ تَسِيْرُ بِالْمَجَادِيْفِ[1] ، وَتَقَدَّمَ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ فَرَكَّبَ فِيْ سَفِيْنَةٍ عَجَلَةً رَبَطَ بِهَا الْمَجَادِيْفَ ، فَإِذَا دَارَتِ الْعَجَلَةُ بَدَأَتِ الْمَجَادِيْفُ تَعْمَلُ وَتَمْخُرُ[2] الْمَاءَ .

ثُمَّ اهْتَدَىٰ بَعْضُ الأَذْكِيَاءِ إِلَىٰ إِدَارَةِ الْعَجَلَةِ بِالْبُخَارِ ، وَالاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْيَدِ الْعَامِلَةِ ، وَلَمْ تَزَلِ الصِّنَاعَةُ تَرْتَقِيْ ، حَتَّىٰ ظَهَرَتْ أَوَّلُ سَفِيْنَةٍ بُخَارِيَّةٍ ، صَنَعَهَا رَجُلٌ أَمْرِيْكِيٌّ اسْمُهُ «هِلْتَنْ كِلَرْ مَا وُنْت» قَطَعَتْ مِئَةَ مِيْلٍ فِيْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ سَاعَةً .

وَلَمْ تَزَلِ السُّفُنُ الْبُخَارِيَّةُ تَتَقَدَّمُ فِي السُّرْعَةِ وَالْقُوَّةِ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ تَعْبُرُ الْبَحْرَ الأَطْلاَنْتِيْكِيَّ بَيْنَ إِنْكِلْتَرَةَ وَأَمْرِيْكَةَ فِيْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ السَّفَرُ فِيْ هٰذَا الْبَحْرِ يَأْخُذُ شَهْرَيْنِ .

وَالْبَاخِرَةُ كَالْقَاطِرَةِ تَسِيْرُ بِقُوَّةِ الْبُخَارِ ، فَإِنَّهُ يُدِيْرُ الْعَجَلَةَ ، وَالْعَجَلَةُ مُتَّصِلَةٌ بِآلاَتٍ تَتَحَرَّكُ الْبَاخِرَةُ بِدَوَرَانِهَا وَتَسِيْرُ .

وَكَذٰلِكَ هُنَالِكَ آلاَتٌ تُوَجِّهُ الْبَاخِرَةَ مِنْ جِهَةٍ إِلَىٰ جِهَةٍ ، وَتُسَخِّرُهَا لِلرُّبَّانِ يَسِيْرُ بِهَا كَيْفَ يَشَاءُ .

---

(١) مِجْدَاف جمع مَجَادِيْف: خشبة في رأسها لَوْحٌ عريض تُسيّر بها القوارب.

(٢) مَخَرَ يَمْخُرُ مَخْراً: مَخَرتِ السفينةُ: جرتْ تَشُقُّ الماءَ.

وَقَدْ تَقَدَّمَتِ التِّجَارَةُ تَقَدُّماً عَظِيْماً ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَحْرِ عَلَىٰ مَتْنِ[1] الْبَاخِرَةِ كَأَنَّهُمْ يُسَافِرُوْنَ فِي الْبَرِّ عَلَىٰ الْقِطَارِ ، أَوْ مُطْمَئِنُّوْنَ فِي الْبَلَدِ وَجَالِسُوْنَ فِي الدَّارِ.

وَكَبُرَتِ الْمَرَاكِبُ وَتَوَسَّعَتْ ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا حَارَةٌ مِنْ حَارَاتِ الْبَلَدِ ، أَوْ قَرْيَةٌ صَغِيْرَةٌ ، فِيْهَا الْمَطْعَمُ وَالْمَلْعَبُ وَمُنْتَزَهَاتٌ ، وَتَحْمِلُ مِنَ الرُّكَّابِ مِنْ خَمْسِمِئَةٍ إِلَىٰ أَلْفٍ.

وَإِذَا رَأَىٰ الإِنْسَانُ السُّفُنَ الشِّرَاعِيَّةَ وَالْمَرَاكِبَ الْبُخَارِيَّةَ تَجْرِيْ فِي الْبَحْرِ رُخَاءً[2] تَعَجَّبَ ، وَرَأَىٰ تَصْدِيْقَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ .



(١) على مَتْن الباخرة: على ظَهْر الباخرة.

(٢) رُخَاءً: لينة دون تحرُّكٍ.

(٧١)

جِسْمُ الطُّيُورِ

إِنَّ اللهَ وَهَبَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ جِسْماً لاَئِقاً ، وَأَعْضَاءً يَسْتَعِيْنُ بِهَا عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِ ، وَتَحْصِيْلِ قُوْتِهِ ، وَسِلاَحاً يُدَافِعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَهُوَ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .

انْظُرُوا إِلَىٰ الْفِيْلِ كَيْفَ مَدَّ اللهُ فِيْ أَنْفِهِ لِيَسْتَخْدِمَهُ فِيْ حَوَائِجِهِ ، وَيَتَنَاوَلَ بِهِ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ ، وَيُوَجِّهَهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَفِيْ طَرَفِهِ زَائِدَةٌ يَلْتَقِطُ(١) بِهَا الأَشْيَاءَ الدَّقِيْقَةَ ، وَقَدْ قَرَأْتُمْ أَنَّ الْجَمَلَ رَقَبَتُهُ طَوِيْلَةٌ ، لأَنَّهُ كَبِيْرُ الْجِسْمِ ، طَوِيْلُ الأَرْجُلِ ، فَلَوْ كَانَتْ رَقَبَتُهُ قَصِيْرَةً لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَرْعَىٰ الْكَلأَ مِنَ الأَرْضِ حَتَّىٰ يَبْرُكَ ، وَفِيْ ذٰلِكَ تَعَبٌ عَظِيْمٌ ، وَشُغْلٌ كَثِيْرٌ ، فَمَدَّ اللهُ فِيْ عُنُقِهِ ، وَرَأْسُهُ صَغِيْرٌ ، فَكَانَ خَفِيْفَ الْحَمْلِ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ ، وَلَمَّا قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُوْنَ

---

(١) الْتَقَطَ يَلْتَقِطُ الْتِقَاطاً: أَخَذَ.

الْجَمَلُ سَفِيْنَةَ الصَّحْرَاءِ جَعَلَ أَرْجُلَهَا مُنَاسِبَةً لِذٰلِكَ ، فَلَا تَسُوْخُ[1] فِي الرِّمَالِ ، وَخَلَق فِيْ جَوْفِهِ كُرُوْشاً وَأَزْقَاقاً يُخَزِّنُ فِيْهَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ ، لأَنَّ السَّفَرَ فِي الصَّحْرَاءِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ ذٰلِكَ كَثِيْراً .

انْظُرُوا إِلَىٰ الْقَنْغَرِ وَالأَرْنَبِ ، تَرَوا رِجْلَيْهِمَا الْخَلْفِيَّتَيْنِ طَوِيْلَتَيْنِ وَكَبِيْرَتَيْنِ ، وَرِجْلَيْهِمَا الأَمَامِيَّتَيْنِ صَغِيْرَتَيْنِ وَقَصِيْرَتَيْنِ ، لِيُمْكِنَهُمَا الْجَرْيُ قَفْزاً ، وَفِيْ قَدَمَيْ الرِّجْلَيْنِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ لِلْقَنْغَرِ ظِلْفٌ[2] حَادٌّ جِداً ، هُوْ سِلَاحُهُ يَبْقَرُ بِهِ بَطْنَ عَدُوِّهِ بِطَعْنَةٍ وَاحِدَةٍ .

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ ، فَفِي جِسْمِهَا وخِلْقَتِهَا آيَاتٌ للهِ ، فَقَدْ كَسَا اللهُ جِسْمَهَا بِالرِّيْشِ ، لأَنَّهُ أَخَفُّ لِلطَّيَرَانِ ، وَجَعَلَ عِظَامَ الطَّائِرِ رَقِيْقَةً جَوْفَاءَ ، فَلَا يَعُوْقُه[3] ثِقْلُ رِيْشٍ ، أَوْ جِسْمٍ عَنِ الطَّيَرَانِ .

ثُمَّ وَهَبَ أَنْوَاعَ الطُّيُوْرِ أَنْوَاعاً مِنَ الْمَنَاقِيْرِ ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبِيْعَةِ الطَّيْرِ وَغِذَائِهِ وَعَادَاتِهِ ، وَكَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ تَرْكِيْبُ أَقْدَامِهِ .

انْظُرْ إِلَىٰ الْعَصَافِيْرِ وَالْحَمَامِ ، وَالْيَمَامِ وَالْغِرْبَانِ ، لَيْسَتْ أَجْسَامُهَا عَالِيَةً ، وَأَنَّهَا تَلْقُطُ حَبّاً صَغِيْراً مِنَ الأَرْضِ ، فَلَمْ تَكُنْ

---

(١) سَاخَ يَسُوْخُ سَوْخاً الرَّجُلُ في الأرض أو الرمل: غَاصَتْ ودخلت.
(٢) ظِلْفٌ جمع أظْلَاف: ظَفر.
(٣) عَاقَ يَعُوْقُ عوقاً: عن الشيء: مَنَعَهُ (فَلَا يَعُوْقُه: فَلا يمنعه).

فِيْ حَاجَةٍ إِلَىٰ طُوْلِ الأَعْنَاقِ ، وَمَنَاقِيْرُهَا مُسْتَقِيْمَةٌ وَقَصِيْرَةٌ تُعِيْنُهَا فِي حَاجَاتِهَا.

انْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِي الْمَاءِ ، وَتَبْحَثُ عَنْ قُوْتِهَا فِي الْمَاءِ كَالْبَطِّ وَاللَّقْلَق ، تَرَ أَعْنَاقَهَا وَمَنَاقِيْرَهَا طَوِيْلَةً لأَنَّهَا تُرْسِلُ مَنَاقِيْرَهَا فِيْ أَعْمَاقِ الأَنْهَارِ وَالْبِرَكِ ، وَتَسْتَخْرِجُ قُوْتَهَا مِنْ أَحْشَائِهَا ، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا أَعْنَاقاً طَوِيْلَةً ، وَمَنَاقِيْرَ مُسْتَقِيْمَةً وَطَوِيْلَةً كَذٰلِكَ.

وَانْظُرْ إِلَىٰ الطُّيُوْرِ الَّتِي تَقْتَاتُ[1] بِاللَّحْمِ وَالْفَاكِهَةِ وَتَأْكُلُهَا نَهْشاً[2] ، كَالْحِدَاءِ وَالنُّسُوْرِ وَالصُّقُوْرِ لاَ تَجِدُ مَنَاقِيْرَهَا مُسْتَقِيْمَةً ، لأَنَّهَا لاَ تُغْنِي عَنْهَا ، وَلاَ تَقْضِيْ حَاجَتَهَا ، فَخَلَقَ اللهُ لَهَا مَنَاقِيْرَ مُتَقَوِّسَةً[3] حَادَّةَ الطَّرْفِ ، وَيَكُوْنُ طَرْفُهَا الأَعْلَىٰ مُتَقَدِّماً مُتَقَوِّساً ، فَيُعِيْنُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ وَقَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَفِي الْعَضِّ عَلَيْهَا.

كَذٰلِكَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ أَرْجُلِ الطُّيُوْرِ وَمَخَالِبِهَا ، رَأَيْنَا بَيْنَهَا فَرْقاً بِحَسْبِ أَنْوَاعِ الطُّيُوْرِ وَطَبَائِعِهَا ، وَعَادَاتِهَا ، وَغِذَائِهَا ، فَالطُّيُوْرُ

---

(١) اقْتَاتَ يَقْتَاتُ: الشيءَ: جَعَلَهُ قوتاً.
(٢) تَأْكُلُهَا نَهْشاً: تَتَنَاوَلُهَا بِفَمِهَا.
(٣) مُتَقَوِّسَة: مُنْعَطِفَة كَالْقَوْسِ.

الَّتي تَعِيْشُ عَلَىٰ الْبَرِّ ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ لَيْسَتْ أَرْجُلُهَا طَوِيْلَةً ، وَأَنَّهَا تَرْفَعُ رِجْلَيْهَا فِيْ وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَتَمْشِي وَثْباً ، وَأَمَّا الطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَعِيْشُ فِي الْمَاءِ وَتَصِيْدُ السَّمَكَ وَهَوَامَّ الْمَاءِ فَإِنَّهَا تُقَدِّمُ رِجْلاً فِي الْمَشْي وَتُؤَخِّرُ أُخْرَىٰ كَالإِنْسَانِ ، وَتَمْشِيْ رُوَيْداً ، فَإِنَّهَا إِذَا وَثَبَتْ وَثَبَاتٍ أَوْ قَفَزَتْ أَفْلَتَهَا[1] الصَّيْدُ.

كَذٰلِكَ الطُّيُوْرُ الَّتِي تَسْبَحُ فِي الْمَاءِ ، وَتَصِيْدُ فَلَهَا جِلْدٌ رَقِيْقٌ فِي مَخَالِبها يَصِلُ بَيْنَ أَصَابِعِهَا ، فَتَنْتَشِرُ مَخَالِبُهَا كَالْمِظَلَّاتِ إِذَا نَشَرَتْ ، وَتُسَاعِدُهَا فِي السِّبَاحَةِ مُسَاعَدَةً عَالِيَةً.

وَالطُّيُوْرُ الَّتِيْ تَقْتَاتُ بِاللَّحْمِ لَهَا أَرْجُلٌ قَوِيَّةٌ وَمَخَالِبُ كَبِيْرَةٌ ، وَفِيْ أَصَابِعِهَا أَظْفَارٌ مُتَقَوِّسَةٌ حَادَّةُ الأَطْرَافِ تُسَاعِدُهَا فِيْ نَهْشِ اللُّحُوْمِ ، وَتَقُوْمُ أَرْجُلُهَا وَمَخَالِبُهَا مَقَامَ الأَرْجُلِ وَالأَيْدِيْ ، فَإِذَا مَشَتْ كَانَتْ لَهَا أَرْجُلاً تَمْشِيْ بِهَا ، وَإِذَا طَارَتْ أَوْ أَرَادَتْ أَنْ تَأْكُلَ كَانَتْ لَهَا أَيْدِياً تَبْطِشُ ، وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ يُمْسِكُ عُوْداً أَوْ قِطْعَةَ لَحْم ، وَيَطِيْرُ فِي الْجَوِّ وَيَسْتَقِلُّ بِهِ ، فَلَا يَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ ، وَكَثِيْراً مَا رَأَيْنَا الْبَازِي[2] قَدْ قَبَضَ عَلَىٰ طَائِرٍ كَبِيْرٍ بِمَخَالِبِهِ وَطَارَ بِهِ إِلَى عُشِّهِ ، وَأَكَلَهُ هُنَالِكَ آمِناً مُطْمَئِنّاً.

---

(١) أَفْلَتَ يُفْلِتُ إِفْلَاتاً: نجا وتخلَّص.

(٢) البَازِيُّ جمع البَوَازِي: جِنْس من الصُّقُورِ الصغِيرة أو المتوسطة الحجم يُصطادُ به.

(٧٢)

شَيْرُشَاه السُّوْرِيّ سُلْطَانُ الْهِنْدِ

(١)

كَانَ شِيْرُشَاهَ مِنْ خِيَارِ السَّلَاطِيْنِ ، عَادِلاً بَاذِلاً[١] رَحِيْماً شُجَاعاً مِقْدَاماً[٢] ، وَكَانَ أَبُوْهُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ ، وَكَانَ شِيْرُشَاهَ يَتَعَلَّمُ فِيْ جَوَنِ بُوْرَ[٣] ، وَيَقْرَأُ الْكُتُبَ الدَّرْسِيَّةَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَجْتَهِدُ وَيَرْتَقِيْ حَتَّىٰ نَالَ الْمُلْكَ .

وَكَانَ وَزَّعَ أَوْقَاتَهُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، شَطْراً[٤] مِنْهَا لِلْعِبَادَةِ ، وَشَطْراً لِلْعَدْلِ وَالْقَضَاءِ ، وَبَعْضَهَا لإِصْلَاحِ الْعَسْكَرِ ، فَكَانَ يَنْتَبِهُ

---

(١) باذِلاً : سخياً .

(٢) مِقْدَامٌ جمع مَقَادِيْم : كثير الإقدام على العدوّ ، جريء في الحرب .

(٣) جَوْن بور : مدينة تقع في ولاية أترابرديش في الهند ، كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي .

(٤) شطْراً : جُزْءاً .

مِنَ النَّوْمِ فِي ثُـلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ ، وَيَغْتَسِلُ وَيَتَهَجَّدُ وَيَشْتَغِلُ بِالأَورادِ إِلَىٰ أَرْبعِ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِيْ حِسَابَاتِ الإِدَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَيُرْشِدُ الأُمَرَاءَ فِيْمَا يُهِمُّهُمْ مِنَ الأُمُوْرِ فِيْ ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَيَهْدِيْهِمْ إِلَىٰ بَرْنَامِجِ الْعَمَلِ لِئَلاَّ يُشَوِّشُوْا أَوْقَاتَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِالأَسْئِلَةِ ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيَتَوَضَّأُ لِصَلاَةِ الْفَجْرِ وَيُصَلِّيْهَا بِالْجَمَاعَةِ ، ثُمَّ يَقْرَأُ الْمُسَبَّعَاتِ الْعَشَرَ وَغَيْرَهَا مِنَ الأَوْرَادِ ، ثُمَّ يَحْضُرُ لَدَيْهِ الأُمَرَاءُ فَيُسَلِّمُوْنَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُصَلِّيْ صَلاَةَ الإِشْرَاقِ ، ثُمَّ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَوَائِجِهِمْ وَيُعْطِيْهِمْ مَا يَحْتَاجُوْنَ إِلَيْهِ ، مِنْ خَيْلٍ ، وَأَقْطَاعٍ ، وَأَمْوَالٍ ، وَغَيْرَ ذٰلِكَ ، لِئَلاَّ يَسْأَلُوْهُ فِيْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَوْقَاتِ ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْمَظْلُوْمِيْنَ وَالْمُسْتَغِيْثِيْنَ ، وَيَجْتَهِدُ فِيْ إِغَاثَتِهِمْ.

وَمِنْ عَوَائِدِهِ[1] بَعْدَ الإِشْرَاقِ أَنَّهُ أَلْزَمَ نَفْسَهُ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرُ فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَإِلَىٰ أَسْلِحَتِهِمْ ، ثُمَّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَنْ يُرِيْدُ أَنْ يَثْبُتَ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ ، فَيَتَكَلَّمُ مَعَهُ وَيَخْتَبِرُهُ ، ثُمَّ يَأْمُرُ أَنْ يُثْبَتَ اسْمُهُ فِي الْعَسْكَرِيَّةِ ، ثُمَّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ الْجِبَايَاتُ[2] الَّتِيْ تُوْرَدُ عَلَيْهِ مِنْ بِلاَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ ، ثُمَّ يَتَمَثَّلُ بَيْنَ يَدَيْهِ الأُمَرَاءُ وَالْمَرَازِبَةُ ، وَسُفَرَاءُ الدُّوَلِ وَالْوُكَلاَءُ ، فَيَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ

---

(١) عَائِدة جمع عوائِد: المعروف والصلة.

(٢) جِبَايَةُ جمع جِبَايَات: الخراج أو الضرائب.

عَرَائِضُ الأُمَرَاءِ وَالْعُمَّالِ، فَيَسْمَعُهَا وَيُمْلِي جَوابَهَا، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُقْبِلُ إِلَىٰ الطَّعَامِ، وَعَلَىٰ مَائِدَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ، ثُمَّ يَشْتَغِلُ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ بِأُمُوْرٍ خُصُوْصِيَّةٍ، وَيَقِيْلُ إِلَىٰ وَقْتِ الظُّهْرِ، ثُمَّ يَقُوْمُ وَيُصَلِّيْ بِجَمَاعَةٍ، وَيَشْتَغِلُ بِتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ الْحَكِيْمِ، ثُمَّ بِمُهِمَّاتِ الأُمُوْرِ لِلدَّوْلَةِ، وَكَانَ لاَ يَتْرُكُ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ فِيْ ظَعْنٍ[1] وَلاَ إِقَامَةٍ، وَكَانَ يَقُوْلُ: الرَّجُلُ الْكَبِيْرُ مَنْ يَصْرِفُ أَوْقَاتَهُ فِي الأُمُوْرِ الْمُهِمَّةِ.

وَكَانَ يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ الْمُهِمَّاتِ وَيُبَاشِرُ الأُمُوْرَ بِنَفْسِهِ، وَيَقُوْلُ: لاَ يَنْبَغِيْ لِصَاحِبِ الأَمْرِ أَنْ يَسْتَصْغِرَ مَا يُهِمُّهُ مِنَ الأُمُوْرِ نَظَراً إِلَىٰ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ، فَيُلْقِيَهَا عَلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ رِجَالِهِ، لأَنَّهُمْ لاَ يَجْتَهِدُوْنَ فِيْهَا، وَرُبَّمَا يَتَغَافَلُوْنَ عَنْهَا طَمَعاً وَارْتِشَاءً.

وَكَانَ يُعَاقِبُ الْبُغَاةَ وَقُطَّاعَ السُّبُلِ وَالظَّلَمَةَ أَشَدَّ عُقُوْبَةٍ، وَيُعَزِّرُهُمْ أَشَدَّ تَعْزِيْرٍ، وَكَانَ لاَ تَأْخُذُهُ بِهِمْ رَأْفَةٌ[2] وَإِنْ كَانُوْا مِنْ أَصْهَارِهِ وَأَقْرِبَائِهِ.

* * *

---

(١) ظَعْن: سَفَر.

(٢) رَأْفة: رحم وعطف.

(٧٣)

شيْـرُشَـاهَ السُّوْرِيُّ سُـلْطَـانُ الْـهِنْـدِ

(٢)

وَمِنْ مَآثِرِهِ أَنَّهُ أَسَّسَ شَارِعاً كَبِيْراً مِنْ «سُنَارْ كَاؤُنْ» أَقْصَىٰ بِلَادِ بَنْكَالَهْ ، إِلَىٰ مَاءِ «نِيْلَابَ» مِنْ أَرْضِ السِّنْدِ ، مَسَافَتُهَا أَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةِ كُرُوْهٍ ، وَالْكُرُوْهُ فِيْ عُرْفِ أَهْلِ الْهِنْدِ مِيْلَانِ ، وَأَسَّسَ فِيْ كُلِّ كُرُوْهٍ رِبَاطاً ، وَرَتَّبَ بِهِ طَعَاماً لِأَهْلِ الإِسْلَامِ عَامَّةً وَلِلْهَنَادِكِ خَاصَّةً ، وَأَسَّسَ مَسْجِداً فِيْ كُلِّ كُرُوْهٍ مِنَ الآجُرِّ وَالْجَصِّ ، وَوَظَّفَ الْمُؤَذِّنَ ، وَالْمُقْرِىءَ وَالإِمَامَ فِيْ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَعَيَّنَ فِيْ كُلِّ رِبَاطٍ فَرَسَيْنِ لِلْبَرِيْدِ ، فَكَانَ تُرْفَعُ إِلَيْهِ أَخْبَارُ نِيْلَابَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ بِلَادِ بَنْكَالَهْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَغَرَسَ الأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ بِجَانِبَيِ الشَّارِعِ الْكَبِيْرِ ، فَيَسْتَظِلُّ بِهَا الْمُسَافِرُ وَيَأْكُلُ مِنْهَا .

وَكَذٰلِكَ غَرَسَ الأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ عَلَىٰ الطَّرِيْقِ مِنْ «آكْرَهْ»[1]

---

(١) اكْرَهْ: مدينة تقع في ولاية أترابرديش بالهند ، كانت عاصمة المغول ، وعاصمة الثقافة الإسلامية في الهند ، أهمّ آثارها : ضريح «تاج محل» .

إِلَىٰ «مَنْدُوْ»[1] ، وَبَيْنَهُمَا مَسَافَةُ ثَلاَثِمِئَةِ كُرُوْهٍ ، وَأَسَّسَ الرِّبَاطَاتِ وَالْمَسَاجِدَ ، وَبَلَغَ الأَمْنُ وَالأَمَانُ فِيْ عَهْدِهِ مَبْلَغاً لاَ يَسْتَطِيْعُ أَحَدٌ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ فِي الصَّحْرَاءِ إِلَىٰ عَجُوْزٍ تَحْمِلُ مَتَاعَهَا .

وَكَانَ شِيْرُ شَاهَ يَتَأَسَّفُ عَلَىٰ أَنَّهُ نَالَ السُّلْطَةَ فِيْ كِبَرِ سِنِّهِ ، وَيَقُوْلُ : إِنْ سَاعَدَنِي الزَّمَانُ أَبْعَثُ رِسَالَةً إِلَىٰ عَظِيْمِ الرَّوْمِ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَرْكَبَ بِعَسَاكِرِهِ إِلَىٰ بِلاَدِ الْفُرْسِ ، وَنَحْنُ نَرْكَبُ مِنْ هَاهُنَا إِلَىٰ تِلْكَ الْبِلاَدِ ، فَنَدْفَعُ بِمُسَاعَدَةِ مَلِكِ الرُّوْمِ شَرَّ الأَوْبَاشِ[2] الَّذِيْنَ يَقْطَعُوْنَ طَرِيْقَ الْحُجَّاجِ ، وَنُحْدِثُ شَارِعاً آمِناً إِلَىٰ مَكَّةَ الْمُبَارَكَةِ ، وَلٰكِنَّ الأَجَلَ لَمْ يُمْهِلْهُ فَمَاتَ قَبْلَ بُلُوْغِهِ إِلَىٰ تِلْكَ الأُمْنِيَّةِ ، وَكَانَ ذٰلِكَ فِيْ ثَانِيْ عَشَرَ مِنْ رَبِيْعِ الأَوَّلِ سَنَةَ ٩٥٢ هـ .

(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)

للعلاَّمة عبد الحي الحسني



---

(١) مَـنْـدُوْ : مدينـة هنديـة قديمـة ، كانت عاصمـة سلالـة الغـوري ، اشتهرت بأطلالها الرائعة ، ومساجدها ومعابدها الجميلة .

(٢) الأوباش : الأخلاط والسِّفْلة .

فهرس الموضوعات

(٣٢) شهادة اليتيم ١١٧
(٣٣) كسرة من الخبز ١٢٠
(٣٤) عيادة المريض ١٢٤
(٣٥) الكيمياء ١٢٧
(٣٦) يوم صائف ١٣١
(٣٧) النظافة ١٣٣
(٣٨) الحنين إلى الشهادة (١) ١٣٦
(٣٩) الحنين إلى الشهادة (٢) ١٣٩
(٤٠) كن أحد السبعة (١) ١٤١
(٤١) كن أحد السبعة (٢) ١٤٤
(٤٢) العين (١) ١٤٧
(٤٣) العين (٢) ١٥٠
(٤٤) أدب المعاشرة ١٥٢
(٤٥) عيد الأضحى ١٥٤
(٤٦) تاريخ القميص ١٥٨
(٤٧) الأسد ١٦١
(٤٨) غرور الدنيا ١٦٤

(٤٩) رسالة إلى رسول الله ﷺ ١٦٦
(٥٠) حادثة ١٦٩
(٥١) فتى الإسلام ١٧٣
(٥٢) الرماية ١٧٦
(٥٣) الجمل (١) ١٧٩
(٥٤) الجمل (٢) ١٨١
(٥٥) أنا هنا فاعرفوني ١٨٣
(٥٦) سفينة على البر ١٨٧
(٥٧) الخليفة عمر بن عبد العزيز (١) ١٩١
(٥٨) الخليفة عمر بن عبد العزيز (٢) ١٩٤
(٥٩) في بيت أبي أيوب الأنصاري ١٩٦
(٦٠) الإمام مالك بن أنس ١٩٨
(٦١) القاطرة (١) ٢٠٢
(٦٢) القاطرة (٢) ٢٠٥
(٦٣) جسم النبات (١) ٢٠٨
(٦٤) جسم النبات (٢) ٢١٢
(٦٥) الببغاء ٢١٥
(٦٦) الحجاج والفتية ٢١٧
(٦٧) أنا تراب ٢٢٠

(٦٨) السلطان محمود بن محمد الغجراتي ٢٢٤
(٦٩) الباخرة (١) ٢٢٨
(٧٠) الباخرة (٢) ٢٣١
(٧١) جسم الطيور ٢٣٤
(٧٢) شيرشاه السوري سلطان الهند (١) ٢٣٨
(٧٣) شيرشاه السوري سلطان الهند (٢) ٢٤١
فهرس الموضوعات ٢٤٣